
من نافذة القطار
بروفيسور عبد الله الطيب

من نافـذة القطار

المؤلف:

عبد الله الطيب

كل الشكر والتقدير للسيد/ صالح عبد الرحمن يعقوب

Salih Abdelrahman
Yagoub Co. Ltd.

الناشر

الوقف لطباعة وتوزيع كتب عبدالله الطيب

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء السفر - السودان

813.9624 عبدالله الطيب ، 1921م - 2003م

ع ا .م

من نافذة القطار / عبدالله الطيب

الخرطوم : نيو لايف ، 2011م .

204 ص ، 24 سم .

ردمك : 879-24999-148-8-4

1. القصص العربية -السودان

2. الشعر العربي - السودان

أ. العنوان

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

ولله الحمد أولاً وآخراً وصلى الله على

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الإهداء

إلى لميس

التي بين الدوحتين تميس

وما هي إلا عادة قد ألفتها
لدى النيل بين الدوحتين تميد

هنالك أوطاني وبدلت غيرها
ألا إن أوطان الرجال قيود

ألا إن دار الفكر وهي سعيدة
لداري وإني عندها لسعيد

فيا ليت شعري هل لميس كعهدها
ولم تتبدل من لميس عهود

١٢/٦/١٩٤٥

إن إبن آدم لحريص على الحياة ، ضنين بها ، صبور عليها ، جزوع من غيبها ، ليس جهد البلاء عنده غير المـوت . فالفقـر المدقـع دواؤه الصبر ، والكدح المضنني ، والرضا بالقليل ، والتحسّر على ما فات ، والحسد لمن نال ، والمرض المزمن دواؤه الأمل ، والعزاءُ منه الدمع والحزن . وهو بعدُ خير من مـوت يقطع الأسباب ، ويجعل بين المرء ودنياه التراب . لاشيء أفظـع من الموت ، ولاشيءَ أحب من الحياة . ولا حب للملذات مـن مالٍ ونساءٍ وصحة وعافية وتسلط ورفعـة جـاه ، وغزارة علم، وتمتّع بصديق صالح فى بلد صالح لولا أنّ الحياة لا تتمُ إلا بهذه الأشياء . ولولا أن الحياة التى هى وجـود فى الدنيا ليس غير ، عزيزة على ابن آدم ، ما كنت لترى آلافاً من هذه السائمة البشرية يغدون ويروحون ولايدرون إلى أين يسـاقون .

* * * * *

حجرة من طين بائسة ليس فيها نافذة ولا أثاث .

جدران وسرير كالجدران .

وغبارٌ ملء الفضـاء يتسرب مـن كـل مكانٍ إلى كـل مكـان وكأنّ أديم المرء يُدبغ . وكأنُ نفسه تختنق

أو تجرُّ على صخورٍ من مهواةٍ إلى مرقاةٍ وهى تئنُّ أنينا ولا تجد على الضرّ معينا •

يوليو ١٩٤٥

لو ترك مقعده خاليا لكان منه كافيا •

أرسل إلينا برقيــة يأمرنا أن نحضر إلى الخرطــوم ليخبرنا أننا سنُوفَدُ إلى بلاد الإنجليز •

لو كتب إلينا كتاباً لكفانا عناء السفر ومشقته • فلما أن حضرنا لم نجد إلا عيّا وحَصَرا وصخرةً جامدة لاترجع جوابا ولا تعلم من أمرنا إلا بعض ما نعلم

وحار فى أمر ملابسنا فهو يكتب حينا إلى مكتب التموين (١)• وطوراً إلى مدير المديرية • وتارة يقول :

You should apply again to the Governor

عملاً بنظريــة : ومدمــن القرْع للأبواب أن يلجا وهو يعلــم أنه سيُراد منّا السفر عمّا قليل ؛ وأن الوقت لايتسع لهذا المطال والكسل والخور والفشل • وكيف لايكون فشلاً والمرء فى حربٍ بين الأفكار المريضة المتضاربة والعقل السقيم المكدود ؟

* * * * *

(١) كان ذلك أيام الحرب وكانت الملابس قد شملها نظام التموين وكان الصوف عزيزا نادرا .

امال اسرع انقشاعا من حباب الماء أسرعت سكبه فى إناء • فيوماً أنا منتظر « م•ع » أن يرسل ويوما أنا منتظر « أ•ظ• » أن يقدم • ويوما أنا منتظر خروف المعارف أن يحصل على شيء من الصوف • إنما هى حيرة وضلال • ولا خلاص إلا رفض هذه المصاعب كلهـا •

أليس من الذلة والقلة والضيم المحزن أن يخبرنا هذا الغبىُ الفدم أننا غداً موفدون إلى بلادٍ صقيعها منهمر، وبردها يصل إلى العظام وترعد منه الفرائص وهى تحت الصوف السميك ، ثم لا يهمه من تدبير أمر إلباسنا إلا أن يُعطىَ كل منا عشرين جنيها ؟

أليس من الاهمال والخذلان والجهل والبلادة أن يكون مثل هـذا الخروف قيّما علينا ؟

* * * * *

لو رفضتُ هذه الرحلة لمنيتُ بشرٍّ منها من شماتة لئام طبعوا على شر خلق وأخبث ضريبة (١) ألسنتهم أحدُّ من السيوف ، ونزعات صدورهم أفعل من سوارب الحتوف •

أما علم ابن ••• أننا ابناء جو حار يلبسون ملابس الليل بالنهار • وليس لهم تدبير مال فيدخر لأمثال هذه الطوارق من نوائب الحق •

إنها لنوائب يضيق منها الصدر ويود المرء لو كان دونها مغمورا • ولعلك تخدع نفسك فتقول إنما تسرى فى سبيل العلم وتدلجُ لله هذا العلم كم أطنب فى مدحه المطنبون • وأى مزية للعلم وربه كانع (٢) راكع لا يطعم إلا الذل والأذى والحزن ؟ وأى مزية

(١) ضريبة : طبيعة .
(٢) كانع : خاضع ذليل ههنا .

للعلم فى بلد يسود فيه الحمقى ويستعلى الجهلاء وينال الغنى كل كلب ! •

هذا « هـ • ك » يقول لى كم وفرت وأنا أراوغه وهو يحاسبنى حسابا عسيراً • ولو كان أخا رأى وفكر لكان معينا على ضراء العقل • ولكنه لم يخلق للتفكير والمشاركة فى العاطفة، وما هو إلا أمىّ تخرج من المدارس العليا التى تخرج منها أميون كثير •

١٢ يوليـة ١٩٤٥

آه آه ، وأوه وأوّ اه وأح أح ، وحسّ حسّ ، وكل لفظة قالتها العرب للتوجع والتألم • هذا والله هو الجزع • وإنى لأذكر قول الشنفرى :

بكى وبكت ثم اتّسى بَعْدُ واتست
مراميلُ عزّاها وعزّته مرمل
شكا وشكت ثم ارعوى بَعْدُ وارعوت
وللصبْرُ إن لم ينفع الشكوُ أجمل (١)

ثم أعود فأذكر قول الآخر :

ومانالها حتى تجلت وأسفرت أخو ثقة منى بقَرْض ولافرض(٢)

• ووالله لا أظنه إلا كاذبا • والله لو وجدت سبيلا إلى قرض لاقترضت•وقد عزّ الفرض فى هذه الايام مع الرأسمالية والمادية•

---

(١) هذا من أبيات الحماسة ، والفرض العطية . اى انه صبر للنائبة حتى انجلت ولم يستعن عليها بقرض او بعطية يستجديها .

(٢) يصف الشنفرى ذئبا جائعا يعوى وذئابا جائعات يعوين . فبكين لما بكى . ثم اتسين به فتعزين لما تعزى .

ومن هم حتى أعنّى نفسى بهم ؟ فليموتوا بغيظهم فإن غيظهم ملـْهاة عندى أتسلى بها وقد علمتنى صروف الليالى كيف أخلق من الحزن فرحا ومن المصيبة مرحا. فالحمد لله الذى خلقهم فى هذه الدنيا وخلقنى ، وجعل قبحهم مادة أصور بها الجانب المظلم من الدنيا فى غير ماتحامل ولاتزيّد. أطال الله بقائى فى عافية ورغد.

* * * * *

مرت علىّ هذه الأفكار وأنا ضيق الصدر بالدار والغبار ويذكر « د » وهو يحسد « م » ويغتابه وينافسه ويعتد عليه بأنه فاته فى امتحان أو اثنين لما ذاكر من سخافات ... ثم يطلب بعد ذلك أن يكون له صديقا .

ثم ينساه إلى زاوية مظلمة من زوايا العقل الباطن . ولعمرى لقد عاش لو كان هذا عيشا .

* * * * *

كأنى أنظر إلى جلده الأسود الأسود ، وأنفه الأقنى المحدودب وجسمه الضئيل ضآلة الرقشاء ، وعينيه ، وصوته الخافت ، وشعره الشائب .... إنه لبائس .

* * * * *

كأنى أنظر إلى المحطة الوسطى
حيث ترى الخواجة وقميصه ذا الأكمام المربوط عند زنده ، وبنطلونه الرمادى ، ومشيته التي كان فيها قزلا (عرجا) وتكشيره

بين آن وآن كأنه على الزوار غاضب ، ثم الكراسى التى كانت فى عهد مضى منسوجة بالخيزران . أما الآن فهى من الحبال ، ثم القهوة التى كأنها تفل والتمر الهندى الأحمر .

وجلسة كل يوم عند إحدى الساريات.وزائر يقوم وزائر يقعده. وأسئلة وأجوبة . وحيرة وسأم . و (أ.ع.س) يتحدث عن بيعه وتجارته وما يعروها من رواج وكساد . و (ر.ق) لاصق بالكرسى كالقراد .

* * * * *

إن الْجَمَالَ الدَّمِثَ الْمقْتَبِل المستهام الأَريحىّ الثَّمِلُ
تيمنى لكننى أكتم الـ وجد وقلبى جمره مشتعل
أهواه كالزهرة رفّافة تبسم فى روض نضير خضل
لَدْنُ الصبا يسطع فى حلة الـ حسن كما يسطع بَرْقُ الأَمل
هدت يد النعمة أغصانه واسكرتها من حياء ودَلّ
تحية الشوق مناجاته إذا تهادى ونسيم الغزل
ليرنو له القلب فيبدى حُلْمُ الأمانىّ طيوفَ القُبَل

* * * * *

يونية أو يوليـة

لقينا فى محطة ... ونحن إلى الخرطوم لنستعد للندن زَعَمنناه وسره أن يتحدث إلينا .

ـ تحتاجون إلى بركلافا وقلقز وبالطو صوف وبالطو مطر ... وأخذ يعدد أصنافا ليرينا تجربته وحذقه وتمرسه بالمدينة وليثملقنا إذ عنده أنا ممن فاز لأنهم أختارونا لنذهب إلى لندن . وليحسـدنا ويشعرنا أنه يحبنا لو الحسد والحب يجتمعان فى قلب واحد .

قـال أبو الطيب :

فلشدّ ماجاوزت قدرك صاعدا ولشد ما قربت اليك الأنجم
يؤذى القليل من اللئام بطبعه من لا يقل كمن يقـل ويلؤم
والذل يظهر فى الذليـل مودة وأودّ منـه لمن يودّ الأرقـم *

يوليـو أو أغسطس

الريف المصرى رائع ساحر . لم نر شيئا كهذا من قبل . كان شعورى به فجائيا وانفعالى إزاءه انفعال عجب وإعجاب . واتفق أن أول رؤيتى له كانت فجرا عندما يقترب القطار من أسـنا أو يتجاوزها . وكان عليه الندى كأنما خرج من ديماس (الديماس الحمام وجاء هذا الحديث فى صفة سيدنا عيسى عليه السـلام) . ولبالأمس ما كنا فى رمال حلفا وصحراء العتمـور . كان زمـن الفيضان . وكان السفر بالباخرة بين وادى حلفا وأسوان من المتعات المرتقيات (انظر رسالة الغفران ــ اللذائذ المرتقيات) إذ كنا جميعا

بالدرجة الأولى.وكان العاملون مخلصين حقا فى خدمتنا ، يظهرون بذلك شعوراً وطنيا إزاء هذا الفوج الأول الكبير من « أفلاذ كبد البلاد » كما تقول بلاغة الصحافة . وفى أسوان ركبنا الدرجة الأولى بالقطار ولكنها لم تكن مريحة إذ كنا ستة فى قمرة . وكان معنا جندى إنجليزى . وكان ساخطا أيما سخط.وأحسب أن الغبار قد ضايقه وأفسد عليه مزاجه فقال لهذا القطار حسنة واحدة ، إنه يوصلك القاهـرة .

* * * * *

أول عهـدنا بمدينة ضخمة

إن الخرطوم لحلة" كأطلال سعدى فى قفار ملس .

زعم الدكتور زكى مبارك أن سينية شوقى كسينية البحترى أو أجود . لقد والله تعصب وأساء .

كنا نهم بقطع « سليمان باشا » ونحن خائفون . وكان (س) يلبس كسكتة واقترح ركوب التاكسى جزعا من مجابهـة الحركة

ــ تاكسى تاكسى

صاحها بتعمله وتقعره ووقف التاكسى وركبنا وركب بكسـكتته وإذا ببعض التلتوار يعلق بصوت مسموع :

ــ البرابرة عاملين خواجات .

* * * * *

جاءنا أحد الوجهاء أو أحدان من الوجهاء للحفاوة والترحيب ومحاولة تمديننا . ووضعنا فى عربة بص . كنا نرى عربـة بص

فى الخرطوم تحمل طلبة الكمبونى المسيحيين ونعدها من ركائب المدنية . فالآن قد ركبنا بص . (لترونّ الجحيم ثم لترونها عَيْن اليقين ثم لتسألنّ يومئذ عن النعيم) قال الشيخ فسر النعيم بالماء البارد .

وذهبنا إلى مقهى ليلى بالقاهرة ووضع لنا صف واحد من « الطربيزات » فى وسط المقهى وكنا صفا واحدا دُكّناً إذ كان كل الحاضرين شقرا أو هكذا لاحوا لنا . وقال لنا أحد الوجيهين (أحسبهم بلغوا الآن ثلاثة أو أربعة) .

ــ سترون نمر (جمع نمرة أى رقم)

وما فهمنا . ثم بدأت النمر . بنات شبه عاريات أحيانا . وبنت تغنى ولا تقدر أن تتبين جمال وجه من قبحه . ولكنا كنا مشدوهين ونعلم أنا نشاهد صميم المدنية .

ليت شعرى عن ابن بطوطة الذى اجتهد أن يكسو عاريات النساء فلم يستطع وأوشك أن يأكل الخنزير فى بلاد الروم ... فى حديثه عن الخاتون التى كانت تأكله وتشرب النبيذ تطلع مريب... « أوهمتنا فيك رفْضاً » ياسيدنا ...

أهدى لنا علب طحنية لكل واحد علبة . « دَرْوَشه » . أو بين مكر وبخل . وكانت حقائبنا مليئة بالهدوم الجديدة النظيفة. وإذا وضع المرء فى حقيبته علبة طحنية فلا شك أن زيتها سيتسرب إلى أكمام القمصان وياقاتها فضلا عن الجاكتات من الصوف النادر. كان أحدنا قال للتاجر الأفرنجى ــ أى الذى يعمل فى السوق الأفرنجى ــ بالخرطوم :

أو الراقصات فى النمر إن شئت أن تتمدن وتكفر وتصير إلى جهنم وساءت مصيرا .

جاءوا يقصون علينا ثلاثتهم أو أربعتهم كيف زاروا صالة رقص وقعدت معهم من ظنوها فاتنة والاستملاح تعود" طول السـواد وقرب الوساد . وجعلت تقول سيدر سـين بكسرة مشبعة ودال ساكنة وراء ساكنة والسايدر زعم هازليت أو أحد المحشين على هامشه أنه شراب صلب ، وهذا جلى أنه ضعيف . ممزوج بماء، ليمونـاده ! !

ــ انا بحمد الله لا مشيت التياترو ولا شربت الليموناتى

ــ الليموناتى ماله يا عمى الطاهر كمان حرام ؟

ــ ماهو حرام علا (إلا) خايف تعجبنى نفسى آكان شربتـه

ــ فشر أنا أجيب لك رومى ، دا بغبغان بمية وخمسين أهيف ويدفعون عن كل زجاجة سيدر خمسة وسبعين قرشا حتى صرفوا فى ساعتين قريبا مـن عشرين جنيهـا . ياللصوصية السـيدر . ويالغباوتهم .

وذانك ذهبا إلى حديقة الحيوانات ليتغديا

ــ يابا دى اللامــة

لام لامة • نون نعامة • وهى مثل الجمل • وقالت ماء • ونادى به ماء بالإمالة فى شعر غيلان •

ــ يابا قالت مىء متل العز

سل يلذرا ذات القصــــور هل جاءهــا نبــأ البدور

وفى الكتاب كانت كلمة الزنا والتلامذة كلهم يعرفونها وهــو لايعرفها وهو لابد أن يعرفها

ــ فنــدى الزنا يعنى شنو ؟

وضحك الأولاد • وكان المدرس أباه• « الله يهديك ياولدى » ونزلوا بهزيع ليلة البارحة عند بنى عمهم بالخرطوم الجديدة وجىء لهم برغيف بلبن وسكر • ويذكر الضحى إذ ذهبا للفوّال فأكــلا فى مجموعات من الناس على طربيزات كأنها فصول المدرسة فولا فى صحون صغار وجرجيراً ، فولا فطيرا أى قليــل الملح • وقطعا ساحة غيراء بأمدرمان بيوتها طين ولا خضرة بها وأكلاعندأقربائهما مكرونة حمراء طاعمة • وركبوا القطار وقال أحد الكبار بالقمرة وكانت عينه توجعه أنا يتيم • « أنت راجل كبــير كيف تكون يتيم » • «أيوه تمام » • «جدا جدا » • دق دق دق دق • ونادوه بإشارة • أبوك خطر • وقالوا له سندوه على الحمار ويقدر اليوم يقعد•ووصل •وسندوه••وكانوا حوله يقرأون يس•وكان ناحلا لا

يتكلم • وشخص ينظر • وكان هو قد وصل من البلد البعيد جدا ليجد عمه وابن عمه يعدان أباه للقاء سكرات الموت وكان ولـد أبيه الواحد لا أخ له ولا أخت وماتت أمه منذ دهر • ولما وصـل ورآه أبوه وكان لا يتكلم نظر إليه وتكـلم : « ود حـلال » ومات قرير عين • شخص إليه الآن كما كان شخص إليـه أبوه • ولم يتكلم • عرفته عيناه • باركته عيناه • كانت له فيه آمـال جسام • كان يقول له أنت ستحلق كاريه وتسافر لندن أو أوربا وعلمه ستآلاف مسألة حسابية،واللآلىء السنية ولولا يزيد وأيام لنا سلفت يا مائل الرأس إن الليث مفترس رمى بك الله برجيهـا فهدمها وكتاب حفنى ناصف وجاءوا بفراريهم زرافات يبكـون

ــ الخـلا والريـح تشيـل إلى ورا

ونصحناهما ألا يفعلا • ذلك لأن للحيوانات شذى يحول دون الاستمتاع حقا بالأكل

وجاءهما سفرجى قصير دحداح ذو وجهٍ كرغيفة

ــ عندنا رز بكبد الفراخ

كأنها قذيفة مدفـع ، « الكرسه !! » (تعجب أى الحربة)

ــ يا جدى عبد الماجد ود حمد (وهو جد الغبش فى طبقات ود ضيف الله رضى الله عنه)

ــ ماذا أكلتمـا

ــ رز بكبد الفراخ ، سبعة وعشرين صاغ

وكان ثمنه غير البخشيش سبعة وعشرين قرشا ونصفا ولكن نسيا موضع النصف فى اللهجة المصرية فحذفاه

* * * * *

أغسطس

فى بورسعيد وابور ضخم يدعى « سبجاك » هولندى ، يسير الآن تحت إمرة ضابط بريطانى ويحمل ثلاثة آلاف من الجنود . وهبطنا سلما وصعدنا آخر .ومررنا بقمرات الدرجة الثانية . وكانت تذاكرنا الدرجة الثانية . ولكنا تجاوزناها أو جعلنا تتجاوزها . وكنا نيفا وعشرين . وكان معنا نيف وعشرين إثيوبيا فكنا خمسين على فرض أن النيف خمسة . وكان قد أعد لنا عنبر من الخيش فيه سراير معلقة . قص علينا أحد إخواننا الذين سبقونا إلى ذلك المكان قصة شجار وقع بينهم وبين الصولات الإنجليز إذ كانوا هناك .

أول ما دخل « ل » وكان شابا حدثا لقيه « صول » كريه واعترض سبيله «هذا مكان معد للصولات لا للزنوج» واستعمل كلمة تقرز (NIGGERS)

وصفى الموقف بعد شكاوى عراض

ولأن تذاكرنا ثانية سمح لنا باستعمال « الصفرة » والحمامات وبيوت الأدب .

وكانت الصفرة ذات رائحة بحرية نكدة

ووقف الضابط يشرح لركاب الدرجة الثانية وكان المتزوجون منهم فقط فى القمرات والباقون فى عنابر الخيش

ـ معاملة خاصة للمتزوجين من أجل السيدات والأطفال أعطوا القمرات • لأن الوابور مزدحم • ولابد من الدقة والنظام • كل الغرف تكون مفتوحة • سآمر نصف الليل وسأضطر لفتح كل غرفة تكون موصدة • وهذا لن يكون بهجا ••• إن فتحنا غرفة فى نصف الليل •

وكان يتكلم بطريقة الشفة العليا الناشفة والسفلى وحدها تتحرك على مذهب الكولونيلات المعروف فى الجيش البريطانى •

ـ هذا الوابور ناشف • إن شاهدتم الضباط البحريين يشربون فهذا لا يستغرب لأن هذا مسكنهم • أما لسائر الركاب فالوابور ناشف • يوجد الشراب الناعم بالبار فى ساعات محدودة ••• أيضا الشاى والقهوة فى الساعة الحادية عشرة • وتمارين العوامات فى الساعة التاسعة ـ وهلم جرا

وبعد يومين شكا أحد الضباط من أن أحد السود ذهب كالناس فى الحمام•وثار بعض كبارنا وتولوا الدفاع عن قضيتنا مع الضابط• وكنا نحن والاثيوبيون صفا واحدا • وكان معنا تركى لا يعرف الانجليزية ولا العربية • وانضح كذب الشاكى • وقد كان جماعة من الصولات يحسدوننا على الحمام وبيوت الأدب اذ قد كان للجنود نظام خاص لكل ذلك ، فيه خشونة بالغة • وشدما جزعنا أول ليلة إذ ظننا أنه مراد منا أيضا أن نستعمل مرتفقات الجنود ولكن الله سلم •

واكتشفنا بعد أيام أن الطحنية تستميل بعض قلوب الافرنج • إذ صار من طريقها بعض الصولات أصحابا لنا • وكان أحدهم مسكين الوجه كالعنز جعل يقص لنا عن أهله • وقد كان البرد فى عنابر الخيش والرطوبة معا أيما مؤلمين • فجعلنا نسأله عن برد انجلترا وخطر الالتهاب الرئوى • مثلاً قرأنا أن الملك أو الأمير كذا غسل قدمه ولم ينشفه بالبشكير فأصابه برد فمات • وجعل الصول الطيب يحدثنا عن حمام الخردل وفوائده •

وقال جماعة من الإخوان لقد كان فلان صالحا حقا حين أهدى لنا الطحنية وهذه بركتها قد ظهرت والله تعالى أعلم •

كان خليج بسكاى مرا وصبرنا عليه

واقتربنا من إنجلترا • ولاح الساحل أخضر والمبانى منتشرة فيه وكان يوما مشمسا • ووقفنا ننظر مأخوذين مفتونين • ودنا الرصيف ورأينا رجلا أمامه نار وشىء كالقدر يعالجه • كان من عمال الطرقات يوقد على قدر من القار ولكنا لم نعلم ذلك ـ (القار أى الزفت) ـ

ـ شوفوا ، إنجليزى بسوى له فى شاى •

أى انظروا ذلك إنجليزى يصنع شايا • حسب المسكين أن الإنجليز يصنعون الشاى بالكفتيرات والحطب كما تفعل فى السودان وراعه أن يراهم يصنعون •

ونزلنا على الشاطىء الإنجليزى فى سوثهامبتن • وقيل لنا قطار لندن بعد ساعة أو دون ذلك قليلا • وخرجنا نتمشى فرأينا الترام ذا

الطابقين . ثم رأينا كشكا يبيع الشاى . فلما طلبنا الشاى وجدناه مرا جدا وقد اعتدنا شراب الشاى حلوا

وركبنا القطار إلى لندن . وإذا الريف الإنجليزى بوهاده ونجاده الخضر . لم نر شيئا كهذا من قبل إلا فى الصور

ووصلنا واترلو . وإذا بنساء ضخمات يدفعن أمامهن عربات صغيرات قيل لنا هؤلاء عتالات . لن والله يطلب من إحداهن أن تحمل شنطته فيسمع أهله الشوس بالسودان أنه استأجر عتالة «ستا» لتشيل له شنطته ياللعار . وكان يصطنع المروءة ويدعى التمسك بفضائل القرويين السودانيين وهذه خلة ينتحلها كثير من الناس وقد أفسدهم لين التحضر حتى لم يبق لديهم من فضائل القرية إلا الجلافة . وشر شىء حضرى لين يتجالف كصادية ابن دريد جَيْفَرَ الوهاب أوْدَى به دَهْر على هَدْم المعالى حَرِيص

انظر إلى العنت الرازح فى « دهر على هدم المعالى حريص » كأنه لا يهدم غير المعالى .

وكبائية شوقى
بسيفك يعلو الحق والحق أغلب وينصر دين الله أيان تضرب
والحق أغلب وأيان تضرب كل اولئك زوائد وأخذ أيان من قوله تعالى يسأل ايان يوم القيامة ووضعها فى غير موضعها

وركبنا عربة تكسى إلى ربة دار « بيلهم »

هل تذكر الدار بأعلى ذى القور

قد درست غير رماد ممطور
وقد قطرت من عينه دمعة حارة عند الوداع
وكتبت إليه واقتبست قطعة من شكسبير
وأرقنى ليل وشك الوصال أنى نُودِيتُ كىْ أدّلج
وأنى هجرت شكاة الفتاة لأصعد عند القطار الدرج
وقد ثرت عطرها المستجاد مع القبلات التى تنفرج

* * * * *

أحب القهوة أحب الشاى
أحب اليافا يافا التى تحبنى
الشاى والقهوة
واليافا وأنا

فضحكنا لنكون أصحاب فكاهة مع أنفسنا وضحك وهو مغيظ . وكان ظاهره هادئا رقيق ظاهر الحاشية ونبئت أنه اشترى من تموينه للحلوى (وكان كل شيء مما يؤكل آنئذ ببطاقات التموين ـ إلا ـ لا أحقق ذلك ـ السمك) قطعا من الشكولاته ثم رأى صبيا له عينان تبصان . وكان صِبْيَة" من قبل قد تصايحوا به « بلاكى » ورأى عينى الطفل كأنه كان منهم فتلطف إليه كالهر واستدرجه حتى ناوله الحلوى ولما ناوله الحلوى قبض بيده وقرص أذنه حتى جحظت عيناه . أتقولها مرة أخرى .

وكانوا يمشون ثم هموا ان يعبروا الطريق وإذا بسيدة معها ولدها يسايرها وإذ به يصيح (مم عاينى نايتقز) والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف .

* * * * *

كان (م٠ع٠) صاحب مطعم بشرق لندن ٠ وكان مهما جـدا بالنسبة إلى العرب بوجه عام ووادى النيل بوجه خاص ولا سيما ابناؤه الذين كانوا يعملون بالإذاعة ٠

ذلك بأن «ميم عين» هاجر من إسكندرية منذ زمان بعيد، حتى إن لغته قد كانت شيئا غامضا ، حرف انجليـزى ، وآخـر عربى ، بلهجة لا مصرية ولا سودانية ولا ذات لكنه ، وحرف ثالث لعله فرنسى ، لأنه قد ذكر أنه زار فرنسا فى الهاقر وأخبره فرنسى كان يعمل فى موتور طلمبة أن الإفريقيين « مخ مافيشيه » ــ آكسانت٠

واستقر به المقام فى شرق لندن٠وصار له مطعم زبائنه الجمايكون وسواهم من البحارة الملونين ٠ واكتشف بعض غير البحارة مـن أبناء النيل مطعمه ٠ فكانوا يزورونه كل جمعة ، ويعد لهم حجرة جلوسه الخاصة ٠ وإنما كان كل جمعتهم يوم الأحد ٠ وكان يفرش لهم طربيزته المستديرة ٠ ويوضع عليها الخص والبنضورة والبصل على نظام السلطة البلدية ٠ ويذبح ديك أو تذبح دجاجة أو يجاء بأحدهما مذبوحا من يهودى «وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم» ونصارى الأفرنج يخنـقون الدجـاج والبط والإوز والرومى٠ والطواويس يخنقونها فى هولندا ٠ والمنخنقة مما حرّم وللأوربيين فى قتل الحيوانات أساليب منكرة٠منها الطعن بآلة حادة فى الرأس، ثم يقطعون رؤسها من وراء ٠ وأكل الـمُجثّمة حرام ٠ وروى عن محمد بن يزيد المبرد أنه أول مادخل خراسان سأله أميرها عن الشاة المجثمة ، فلم يعرفها فى قرارة نفسه ، وكره أن يعترف بذلك، فقال : هى كالشاة اللَّجِبة أى العجفاء وانشد مستشهدا :

لم يَبْقَ من آلِ الحُمَيْدِ نَسَمَةْ إلا عناقٌ لَجِبَةٌ مُجَثَّمَة

هـذا ؛

وتوفى (م٠ع٠) ذات يوم • واجتمع البحارون من زنزبـار ، ومن سود العرب وحمرهم ، ومن عجم المسلمين وبعض الإنجليز واليهود•وجاءت نسوةيبكين•وو ُضع الصندوق الذىفيهالجنازة للصلاة • وأحاطت بما قبل الصلاة طقوس وثنية فى جهر رهيب من بعض السواحليين • ثم كبر الإمام فحطم الأصنام • وبعد الصلاة وضع الصندوق فى تكسى ليحمله إلى مقبرة المسلمين بوكنج • رحم الله (م٠ع٠) رحمة واسعة •

أكتوبر ١٩٤٥

ضقنا ذرعاً بالسمنارات •

وكان يحضرها معنا مفتش تعليم من جزر الهند الغربية ومفتش تعليم من جنوب نيجيريا • وشكوت إلى صاحبى ضياع زمننا • فلامنى على عدم الصبر ، وكان أعقل منى • ولم أطعه فشكوت إلى الأستاذة ، فنظمت لنا عدة زيارات لمدارس فى نواحى لندن • منها كانت مدرسة هـ

ركبنا إلى هـ بص •••• مـن ماربل آرش • وزرنا المدرسة اياما متواليات وكنا نتغدى فيها • وكـان صاحبى قد استثقل ناظـر المدرسة الطويل والمدرسة الأ ُولى والمدرسة الثانية•أما انا فلم أبلغ أن أكو ّن فكرة عنهم • وكان مما دلنى على استثقال صاحبى للناظر أنه كان يقول : « إنه فرح جدا بالغداء • انظر كيف يأكل بشهية على رداءة الأكل لا لشىء إلا لأنه بخمسة بنسات ، ويمتن علينـا فى فرَحه لأننا نجد أكله بالمجان أصل ثمنها ثلاثة بنسات • »

وكنت لا ارى معه استثقال المدرسة ولا الناظر على وجه الاطلاق، ولا سيما المدرسة الثانية .

وإنتهت فترة هـ وابتدأت السمنارات مرة أخرى وكتابة المقالات عما جربنا . إن المدرسين أسوأ ما يكونون حين يتحدثون عن التدريس . وقد كنت وصاحبى سبقت لنا تجارب تدريس مع أصناف من الأطفال والأولاد . وكان سائر الذين نلاقيهم فى السمنارات بالنسبة إلينا لا يعلمون شيئا . إلا سمنارات الأستاذة فقد كانوا مجربين بلا عقول .

« شين » مثلا كانت له عينان كالضفدعة وعقل الضفدعة أيضا . وكان « ك » حاذقا لبقا مثل فلان ممن غادرنا وراءنا بالسودان . ولكنى كنت أرى فى سمت وجهه نفاقا كثيرا وانتهازية عميقة ونجاحا مؤسفا كأصناف هذا النجاح الكثير الذى ترتفع به قيم متوسطى الذكاء لدى أذكياء المفتشين الانجليز .

مثلا السير دوجلاس نيوبولد كان ذكيا لاشك فى ذلك . ولكن عقليته الحاكمة لم تكن تزين له إلا أن يعجب بالقردة أو المستقردين تجاهه من السودانيين . أما القردة فمقلدوه ومقلدو أضرابه ضربة لازب ، وأما المستقردون فكانوا صنفين : صنف ذكى يريد أن ينجح ماديا بأى ثمن . وصنف غبى يستملحه هذا الصنف الذكى.

وذهب الناس ليصلوا على نيوبولد وقرأت قوله تعالى «ولا تصل على أحدٍ منهم مات أبدا ولا تقم على قبره » وانبرى لى زاجر زابر يحذرنى العواقب ولعله يكون قد وشى بى فى الذى قلت والله أعلم: « يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعضَ الظن إثم ولا تجسَّسوا ولا يغتب بعضكم بعضا » ـ صدق الله العظيم .

نوفمبر ١٩٤٥

شـــكوت إلى الأستاذة ضياع زماننا فى لا طائل مرة أخرى . وجاء الكرسماس ولأول مرة سمعت باليوم المسمى Boxing Day قرأت ياترى عنه من قبل ؟ لابد ، ولكن لم أكن أفهم ما يـــراد .

ذهبوا إلى الحانة التى فى آخر الشارع « إر » ونظر أحدهم إلى خادمة الحانة فحادثها فقالت إنما نحن من طبقة عاملة. فاستحلى أحد من كانوا معهم كلمة طبـــقة كما نطقتها امريكانية المدة (كلاس) وهى إنجليزية . فكأن جميلا أصاب من بثينة نظرة .

وعند أول الفصل الدراسى ذهبنا إلى مدينة « ر » لنزور مدرسة نقيم فيها أسبوعين عسى أن نستفيد فيزيل ذلك شكواى . وكانت من مدارس الكويكرز . وكان المقام فيها نعم المقام .

كنا فى منزل من منازل المدرسة . أعدت لنا حجرة كأحسن ما تُعَدُّ حُجَر المدرسين القاطنين بالمنزل وكانوا أربعة . وكنا نفطر صباحا جميعنا مدرسين وتلاميذ . وربة المنزل فتاة حسنة المنظر لما تتزوج كأنها بسبيل أن تصير عانسا . وربة المنزل شىء بين الإدارية والمدرسة . وكان المدرس المشرف يجلس على رأس الخوان الكبير والآنسة العانس على الطرف الآخر . والمدرسون من عن يمـــين المشرف ويساره . وكان الطعام جيدا كأن القوم لم يسمعوا بتموين لندن إذ مدينتهم زراعية بها سوق زراعية . هكذا قالوا لنا . وكانوا

يبدأون صباح الدرس بصلاتهم . يجتمعون فى قاعة فيصمتون.ثم أحدهم يستشعر أن الروح حرّكه فيتقدم إلى الإنجيل فيقرأ منه. قرأ أحدهم قصة جونا ـ أى يونس ـ مرة.والتى فى القرآن أفضل أداء منها إذ فيها كالتحليل لشخصية يونس « وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظنّ أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمــات .... » ولا تحسبنّ أن القرآن نظر إلى الإنجيل فنقل منه كما يقول بعض الإفرنج المستشرقين من أمثال أسين . فالراجح عندى أن الإنجيل (بل أعنى الكتاب المقدس بانجيله وتوراته وزبوره وعهديه التليد والطارف) نظر إلى القرآن فأخذ منه وهذا قد يبدو غريبا عجيبا قال الشــيخ محمــد المجذوب بن قمر الدين رحمه الله ونفعنا بجاهه :

حضور إذا غبنا وغيب حضورنا

وذا عجــب فليعجب المتعجــب

وعندى مع الذى أحَسنتُه من جد الكويكريين وصدقهم فى سمتهم وصمتهم وحين يقرأون وحين يُخبتون إلى الاستماع تكاد أعينهم تفيض من الدمع ، أن عبادتهم مع هذا فيها نـوع مــن صنعة وضرب من تظاهر بالفهم أمام الله « إن الله غنى عن العالمين» إذ بدا لى كأن الكويكرى يقول : « يارب أنا أفهمك تماما . أنا وأنت على مستوى رفيع لا يصلح مع هؤلاء العوام » . والعوام على هذا يكونون سائر الناس غير الكويكريين . ولا يخفى ان مثل هذا التفكير ضحل. لأن التصوف الذى يدعى فهم الله والتفاهم معه مسألة فردية بحتة لا تخلو من الجنون.لا يعنى هذا أن المرء لا ينبغى له أن يبتهل إلى الله ويسأله ويجأر إليه.إذ ليس فى ذلك تقرب فردى

على معزل من سائر خلق الله فى خلوة خاصة ، وإنما فيه لجوء — واللجوء علانية أو ضرب من علانية — واستسلام ودعاء خالص وإن شاء الله أجاب • وأحسب أصحاب وحدة الوجود يشيرون إلى معنى من هذا إلا ان اصحاب وحدة الوجود مما جرّدوا الذات تجريدا يخرج أو يوشك أن يخرج بها عن صمدية الله إلى معنى من معانى القوى الذريّة المنطلقة المنبثقة فى الكون فى غير ما أول ولا آخر • وقول الله تعالى فى صفة نفسه تعالى أنه « الأول والآخر » ينفى هـذا كما ترى • وقال تعالى وهو سر ماذهبنا إليـه آنفـا وجوهره : «وقال ربكم ادعونى أستجبْ لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنّم داخرين » •

وأحسب أن النصارى على اختلاف فرقهم ومعتقداتهم يشتركون فى الذى أخذنا على الكويكريين من طلب التزلف الفردى إلى الله من طريق النبوة والضحية فى سيدنا عيسى صلوات الله عليه• وقدفطن كلا المتنبى والمعرى إلى جانب الضعف فى كلا المعنيين • قال أبـو الطيـب :

ويَستَنْصِران الذى يَعْبُدان ... وعندهما أنّه قد صُلِب

وقـال أبو العـلاء :

وما أبهـوا وقد جعلـوه ربّا ... لكيلا ينقصوه ويجدبوه

وفى القرآن : « وماقتلوه وما صَلَبوه ولكن شُبّه لهم•» وفى هذا من التنزيه لسيدنا المسيح صلوات الله عليه ما ترى•وقال بعض

المفسرين : ألقيَ شبَهُه على أحدمن كانوا معه ليلة العشاء الأخير • وقيل أُلقِيَ شبَهُه على يهوذا الأسخريوطى ، والله أعلم أى ذلك كـــان •

ولا أكاد أشك أن أمر القيامة قد شبّه للمرأة وصاحبتها إن صحت الرواية عنهما •

قريب من هذا أمر البيان عندنا • تزعم امرأة مثـــلا أنّ وليّاً بِعينْهِ تبين لها فى موضع كذا ، فتفتعل تربة وأحجارا ورايـــات ويصير كل ذلك مقاما يزار • وفى البلاد الأسلامية مقامات مـــن ضرب هذا كثير •

وفى مقرات بيان لأبينا آدم وأمنا حواء•مرحلة بالراحلة•لأن سيدنا آدم عليه السلام كان طويلا جداً ، وأمنا حواء كذلك • وينبغى أن شجرة التفاح (على هذا التخيل) كانت أضعاف نخلة الجبّار التى بصحراء مراكش أضعافا مضـــاعفة • والتفاح ليس بمذكـــور فى القرآن وإنما المذكور شجرة • فإن كان سيدنا آدم نزل الهند فهى « أنبجة » (منقة) • وإن كان نزل أرض بابل فهى من نخل البصرة أو البرنى والآزاذ الذى جاء فى شعر المتنبى قافية الذال • وإن كان نزل فى شرق إفريقية فالله أعلم أى شىءٍ كانت • وماكانت لتكون التفاح باية حال ، إلا على تقدير أن الجو فى شرق إفريقية كان كجو بلاد التفاح اليوم • اللهم إلا أن يكون قد نزل سيدنا آدم بجبـــل كلمنجارو وهو عالٍ تكلله الثلوج ويجوز ان ينمو فيه التفاح والتين والزيتون والفراولة جميعا وغيرهن من أشجار المدنية الكتابيـــة•

وفى فتــوار

على مقربة من شاطىء النيل الأيسر شمال مدينة بربر مقبرة «أب بشر» وابنته «بشرية»، صالحان وفدا من المغرب فيما زعموا. ذكروا أن «أب بشر» كان قد جاء حَجَرةً النيل قبل المغرب وفرطته المركب (هكذا فى لهجة الجعليين أى فاتته المعدية . وفرطته فصيحة جدا) . وكانت قريبا . فصاح بالناس فلم يردوها إليه استصغارا لأمره . فوضع فروته على الماء ووضع ابنته معه فإذا هما يشقان الماء كاللنش بلا موج ولا تيار ولا اذى كما تفعل اللنشات . ووصلت المركب وأقبل من فيها على الولى الصالح يتضرعون .

وفى غرب الدامر بوادى أب سلم بيان لأب بشر وابنته بشرية !

هــــذا

وذات يوم حدثنا ناظر مدرسة مدينة « ر » أنه يعطى دروسا فى الدين المقارن (هذه العبارة لا تعجبنى . ولكن المعاصرين اصطلحوا ترجمة التعبير الإنجليزى Comparative بقولهم المقارن) وطلب منا أن نخضرها . أحسبه أرادنا لنحضرها أملا أن يكون فى ذلك هداية لنا على تقدير أننا مسيحيان إفريقيان أنقذهما المبشرون بنور الرب من ظلام وثنية الغابة آمين . وتصديت فذكرت له أننى أود أن أحدث طلبته عن الإسلام . فأظهر سرورا عظيما . وحضَّرت الدرس ليلا وعرضت ما حضرته على صاحبى فنصح وراجع ورضى . وكان الدرس تعريفا بالأسلام وتوضيحا لبعض مايتيسر فهمه للصغار من مزاياه وفضيلة تعاليمه . وكان الناظر يسمع شديد الانتباه . أما التلاميذ فقد تتبعوا الدرس أيما تتبُّع وسألوا

أسئلة تدل على حسن انتباه . وسأل الناظر سؤالا مهذبا لم يخل من خفى تعصب ــ تعصب من يثق بما يقول المستشرقون .

ثم بعد الدرس وانصرافنا لنستريح ا.ستراحةقهوة الساعة الحادية عشرة فى حجرة المدرسين أقبل علينا الناظر يشكر لنا ويحمد إلى زملائه درسنا .

وسايرنا ذات مساء بعد دعوة شاى دعانا‌ها ليودعنا بها . وقال وهو يسايرنا ببحة رياسة وكهولتها « إذن فأنتما مسلمـــان . ينبغى أن تكونا مسلمين عريضى فكر جدا » . وتنازعنا عبارات المجاملة. وكان مما دعاه أن يستنتج ما استنتجه فيما زعم حضورنا اجتماع صلاتهم صباحا . إذ كان يظن هذا ممنوعا عند المسلمين ولم يكن قرأ السيرة وأن الرسول صلى الله عليه وسلم دخل بيت المِدْراس على اليهود . ولم نذكر له هذا إذ كرهنا أن نفيض معه فى هذا الباب . ثم بعد سكوت ونحن نتسَايَرُ كرر العبارة : « ينبغى أن تكونا مســلمين عريضى فكـــر جـــــدا Very broad minded Muslims حسرته أننا مسلمان عريضا فكر لايكاد يخفيها . إذ كان عنده أن المسلمـــــين فَنَطِيقِيُّون ــ أى متعصبـــــون غـــلاة بأيديهم السيوف والحراب يصيحون بوحشية:« الله أكبر » ليقتلوا حمل الله المسيحيين الذين بأيديهم المدافع الرشاشة ، كما فعلوا حال كونهم الدراويش بالجنرال القديس غـــوردون الذى أدرك ثأره اللورد كتشنر اوف خرطوم بصيرورة الخاء كافا .

ثم انتبه من الحسرة ليجاملنا . فقد كان رجلا حسن البنية.أطول من المربوع الذى إلى القِصَرِ ، صبيح الوجه ، وجيهه ، وخــط فودَيْه الشيب وجاوزهما ، فى عينيه بريق ذكاء حطمه مر التجارب

والسنون وحذرُ الكياسة الإدارية . فقال « أنتم طبعا عواطفكم مع العرب » يشير إلى قضية فلسطين . فلما أجبنا أن نعم قال وهو يجاملنا أنا كتبت كتابا حللت به مشكلة فلسطين وأنصفت العرب. كل الحلول هناك . لو يرجع اليها المسئولون أغنتهم . وقد بعثت بنسخة إلى وزارة الخارجية . ثم ودعنا . واحسبه قال : لقد كان سرورا عظيما لقاء مسلمين عريضى فكر مثلكما .

ثم لا أدرى إن كان بدا له أن عسى أن يكون عرض فكرنا من حسنات الحكم البريطانى . أم عسى أن يكون فيه انتصار لتعاليم المسيحية السمحاء آخر الأمر :

ومن يغترِبْ يَحْسِبْ عدُوًّا صديقه
ومن لا يكرِّم نفسه لا يُكرَّمِ
ومن يوفِ لا يُذْمَمْ ومن يُهْدَ قلبه
إلى مطمئن البرِّ لا يتجمجم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه
وإن يرق أسباب السماء بسلم
وكائن ترى من صامتٍ لك معجبٍ
زيادته أو نقصه فى التكلم
لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده
فلم يبق إلا صورةُ اللحم والدمِ

* * * * *

إبريــل ١٩٤٦

أو مارس
ندّ عنك التأريخ

شكونا إلى الأستاذة مرة أُخرى ؛ هذا فى فبراير ؛ وأحمدنا إليها أيام مدينة « ر » ؛ فرأت أن ترسلنا إلى مدرسة أخرى نقيم بها أياما عسى أن نحمدها • وكان التلاميذ هنا أصغر سنا من ضرب تلاميذ المدراس الوسطى عندنا • بل أعمارهم أقرب إلى أعمار تلاميــذ الأوليّات فى العاصمة •

لقد كان تلاميذ الكتاب إذ كنا بمقرات رجالا • ولم يك من صغار غيرى وغير آخر أو آخرين • هذا أقوله على ســبيل الاحتراز • وأذكر أول مقدمنا مقرات منقولا أبى إليها من كسلا كيف ملأ القوم بيتنا بتمر من « المِشْرِق » (١) وقِرَب العجوة من « ودلقَّايْ »، وقفف ملاءمن«ودخطيب»الذى دُمِّس بالرماد ليمنعه من السوس• و « ودلقاى » و « ود خطيب » أجودا أصناف تمر السودان بلا ريب • أصلهما من المدينة فيما ذكر لى • وفى « ودلقاى » قــال الشاعر « ود الكليباوى » يذكر الشاى والسكر :

ما بيعجبنى ودلقــاى
بادور التقلوا له الشاى (٢)

أى « ود لقاى » لايعجبنى ولكن يعجبنى السكر الذى يصنع له الشــاى ثقيلا •

---

(١) المشرق ينطقونهـا بكسر الميم اى التمر الــذى اصله المشرق كانهم يريدون اسم الفاعل « المشرق » من اشرق فيقلبون الضمة كسرة وهذا فى العامية كثير.

(٢) بادور ، الباء والفعل المضارع ادور اى اريد . واحسب الباء اصلها من باء يبوء فهى بقية فعل وليست حرفا . وتنطقها بدور بدون الف .

« ولود الكليباوى » فى الشاى أصناف أشعار . قال :

أنا ان جنّيتَ موقِلنبه
شاياً مو ورق حِلنبَه
بادوره معايا فى التِر ْبه (١)

أى إن جننت فليس ذلك بما يستغرب . الشاى الذى ليس بورق حلبة ، أريده معى فى التربة أى القبر ، أى كما قال أبومحجن : —

إذا متُّ فادفنى إلىَ جنبِ كَرْمةٍ
يرَوِّى مُشاشى بَعْدَ مَوتى عروقها

وكان قد نَدَرَ السكرْ عام ١٩٣٠ . أحسب أن الحكومة همت برفع سعر السكر فاختفى من الدكاكين واستعمل الموظفون الحلوى . فقال « ود الكيباوى » :

ما تصابح الجار يا حمار
ما تسويها الحيلة نار
ما تصابح الجار القريب
تسمع الكع تطلب الشيب

أى لاتزر جارك مبكرا فى الصباح أيها الحمار تزعم أنك تريد منه نارا وماتريد إلا أن تشاركه فى شاى الصبح . لاتزر جارك القريب أول الصباح لمجرد سماعك صوت رأس السكر يكسر (كَع كَعْ) فتطمع فى أن تشرب كوب الشاى «شِيبْ شِيبْ» قال ذو الرمة:—

تداعين باسم الشيّب فى مُتَثَلّم   جوانبُه من بَصرَةٍ وسِلام

(١) التربة ينطقها الرباطاب بكسر التاء والابيات بلهجتهم .
(٢) بعده : انت ياخوى امرك عجيب. انت ماعندك تراتيب. ماتروح الدكان تجيب.

وقوله «تريد منه نارا» يشير إلى مايكون أو ماكان يكون فى القرى، يستوقد أهل هذه الدار أهل تلك ، هل عندكم نار ؟ فيعطونهم عودا أو جمرات. ومن أكثر ما تستوقد أو كانت تستوقد به النار بعر البقر ، لأنه يحتفظ بالنار زمنا طويلا وله جدار صليب . وكان «م» ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ تمتاما فى صباه . أذكره كأنى أراه عيانا . ولم يكن عمرى ، فيما قيل لى إذ أشير إلى هذا ، أكثر من ثلاث أو أربع على أقصى تقدير . كان ـ أراه الآن شبحا ـ يحمل البعرة ويقول ... ويتمتم ويبكى،هذه الصورة العالقة . أحسبهم كانوا يغايظونه وهم يعلمون مايريد . فتزداد تمتمته ويبكى . أرى شفتيه وأنفه وهو ينخج ويذن أنفه من البكاء . وتختلط صورته فى ذهنى بصورة «حلبية» (١) كانت تستجدى كعادة «الحَلَب» .(٢) أراها الآن وبيدها صحن فيه كسرة «ومُلاح» أخضر ، أى إدام من ورق اللوبياء أو الخضرة (هذا كان اسمها واسمها الآن الملوخية) وكانت تحرك الصحن ليعم الملاح الكسرة . الكسرة فى الوسط والملاح فى جانب . وهى تريده ليستدير حول الكسرة . لعله ملاح ويكة . لا أرى الآن إلا الصحن وحدقتيها تتفرسان فيه جشعتين ولعلما أرى فما .... هذا ،

ومما أهداه إلينا أهل مقرات طعام أيام متواليات . وكانوا يطبخون بزيت السمسم وفيه مرارة ، فيجعلون فيه شيئا من السكر . وأما سمنهم البلدى فكان نادرا جدا ويسلأونه مع البصل ويعلفون

---

(١) حلبية : غجرية ونورية بلهجة السودان .

(٢) حلب : غجريون او نوريون كان اشتقاقها من قولهم احلبوا اى اجتمعوا من كل مكان كان معنى الحلب القوم الاخلاط .

المعزى نوى التمر • أذكر شيخة كانت ترضخه • وعلقت هــذه الصورة فى ذهنى • ثم قرأت بيت الحماسى : ـــ

كمــا تَطَايَحَ عن مِرْضاخِـهِ العَجَمُ

فبرزت معالم النوى المتطاير واضحة جدا •

كان أهل مقرات حق كرام ، ونما لنا معهم ود ، وكانت تجمعنا بهم صلة رحــم •

وحدأة مقرات كاسرة •

أذكر إذ أُرسِلت لأحضر لحما • وكان اللحم قلما يجزر «بالسيال» حيث كنا نسكن • رعى الله أهل « السيال » وشيخها الكريم السمح وأسرته أهل المبرة واليمن • وحملت ما أرسلت لأحضره من اللحم، لا أرى فيم حملته • وإذا بحدأة •••••

(وأهل مقرات لايقولون «الحِدَيَّة»ولكن يقولون «السرتوية»)
••••• تلطمنى بجناحيها لطمات • وأصررت على ألا أستسلم • وسقط اللحم مرارا ، وقاتلت عليه الحدأة حتى أوصلته •

واصطاد أناس فرس البحــر (ويسمونه القلوبة بمقرات) بحفر احتفروها له وبعثوا إلينا بقطعة منه • وفى كتاب الشيخ عمر اسحق أو بابكر بدرى إن لحمه تفه لا يأكله إلا الصيادون•ووضعت القطعة فى « الحلة » • وأوقدت النار • وطال الأمد والقطعة تبزبز بالفقاقيع والماء لا يفور ، بل يتزايد وهو كالبارد أو الفاتر ، الله أعلم أى ذلك كان •وعلمنا بعد دهر ـــ وقد ألقينا القطعة فى الدمنة آنذاك (١) ـــ

(١) الدمنة : حيث تلقى اوساخ الدار •

أن لحم فرس البحر ينشف فى الهواء حتى يفقد الماء • ثم إذا طبخ بعد ذلك كان جيدا •

واهل مقرات يسمون اللوبياء العفن « النّقسّيل » ويسمون جابية الساقية « الأقنين » ويسمون قطيع البيت (١) الدّكيق

ويسمون النفاج (٢) « السام » •

ومقرات جزيرة كبيرة • وغاظنى بعد دهر أننى وجدت فى كراسات الجغرافيا : الجزيرة قطعة أرض يحيط بها الماء من جميع الجهات مثل جزيرة توتى بالخرطوم ؛ لماذا لايستشهدون بمقرات ؟ ولم أكن قد سمعت بتوتى ؛ وماكان يخيل إلى أن جزيرة تكون أكبر من مقرات أو أشهر • ولا ريب أن توتى أصغر منها • وعسى أن تكون نفسى قد كرهت أثرة العاصمة وافتئاتها على الأقاليم حتى فى كراسات الجغرافيا • وشهرة توتى لا تخفى وقد تنسب إليها الخرطوم فيقال خرطوم توتى وقد ذكرها يونس بحرى من مذياع برلين حين ثارت على حكومة بريطانيا •

هـذا ،

وإنما جر إلى هذا الاستطراد موازنة أعمار التلاميذ فيما بين بلادنا وبلاد الإنجليز • وأعود إلى قصة المدرسة التى بها بدأت •

كان ناظر المدرسة طويلا أقرب إلى المشذّب أو هو المشذّب • وكان صاحبى يراه من أصحاب الغباوة وكنت أظنه يظلمه • بل

---

(١) القطيع : كان لازما فى البناء السودانى وهو مخزن صغير مظلم يقتطع فى آخر البيت بجدار يوصل بين الجدارين الطويلين ويكون له بويب •

(٢) النفاج : الباب الصغير يصل بين بيتين متجاورين والسام هو الحوش ، وانشدوا .: شتيل المشرق ال علوا له سامه

أعجبني خاصة ساعة أراني القطار الذى يلعب به التلاميذ. فقد كان أيسر جانبا من مؤلف حلول مشكلة فلسطين . وقطار التلاميذ كان رائعا ، إلا أن صاحبي لم تكن تعجبه الفرجة على دور الصناعة هازلا أو جادا . وكان مدرس التاريخ يدرس فترة هنرى الخامس من كتاب ضخم كان لكل تلميذ منه نسخة . وكانوا يقرأون الواحد بعد الآخر كما فى حصص المطالعة . وبعضهم كان يرسم خرط مواضع القتال. فمن كانوا يرسمون لم يكونوا يشتركون فى المطالعة ومن كانوا يطالعون كان أمرهم إلى أن يرسموا ويكتبوا بعد الفراغ من صفحة أو صفحتين تقرآن . وكان المدرس دمثا ، لين العريكة ، كثير الصمت ، لو غيره كان مكانه ، يفعل ما يفعله لا ينقص ولا يزيد ، لكان الدرس ثقيل الظل ، بطيء الحركة ، قليل الجدوى . ولكن كان له أخذ" غريب بنفوس التلاميذ ، بعض مصدره لاريب تعودهم أسلوبه ، وعلمهم عطفه ورقته عليهم ، وأكثر مصدره خبرته العميقة الأصيلة ، وملكته الموهوبة فى التدريس . قد كان لا يبالى بخطا (هربارت) الخمس أو كان كأنه لايبالى . ولا يشك المرء أن درسه ناجح نافذ إلى الأفئدة .

وكنا نأوى إلى فندق أعدت لنا فيه غرفة بسريرين . وقال لنا رب الفندق : هذه غرفة الأكل ، وهذا هو الحمام ، وهذه هى غرفة الجلوس ؛ إلا أنها لاتلائمكم لأنها غير دافئة . أنتم تحبون الشمس والجو الحار . قليلا ما تظهر الشمس عندنا . هنا حجرة صغيرة تلائمكما ، دافئة لأن ههنا موقد غاز . هكذا . دافئة جدا. ومنضدة للكتابة . ماتحتاجون إليه... وشكرنا له صفاقته إذ لم يخف عنا أنه أراد ليعزلنا عن الجالسين بحجرة الجلوس. ولعله لو كان وجد سبيله

إلى أن يعزلنا عن حجرة الأكل لفعل • وكان عدد المقيمين بالفندق غير حق كبير•إذ كان آنئذ أول الربيع•وكان الفندق ريفيا يقصده هواة الطيور والمشى والراحة فى الريف•كانوا كلهم فوق الكهولة رجالا ونساء • وكانوا يتحدثون فيما ذكر لى صاحبى إذ كان دقيق الملاحظة وانتبه إلى أحاديثهم ولم أفعل ، عن طيور المنطقة ونباتها• وكان بقاؤهم فى غرفة الأكل يتحدثون أكثر من اختلافهم إلى غرفة الجلوس • وكان بقاؤنا فى غرَيفة جلوسنا أكثر من بقائنا فى غرفة الأكل أو فى غيرها • وكان ربيعا باردا كأبرد مايكون شهر أبريل• وكنا المساء نخرج قليلا • فرأينا « بَبّاً » (والبب اختصار «ببلك هاوس » Public House « وحان » لا تصلح ترجمة له) • قال صاحبى : هذا من ضرب سيتجهمنا لفراهة منظره ومن تواضع لله رفعه • وأصررت على أن نرى داخله فدخلنا • فإذا جو بارد • وهو خال أو كالخالى • فجزعنا من سوء خُلُوّ الترحيب• ومضينا إلى آخر كنا نرى ظلال الأشخاص وراء زجاجه • و «النبّبّات» أبدا ذات زجاج سميك يضرب إلى البرتقالية يحجب ما وراءه • وعلمنا من مرآنا الاشباح أنه حىّ مزدحم • ودخلنا واحسسنا دفء الجماعة • وتحدث إلينا أحدها •• تاجر متجول، سرعان ما طابت العلاقة بينه وبيننا وكان هو وصاحبى يتبادلان إعجابا شديدا : كلاهما أعجبه من الآخر دقة ملاحظته وعمق معرفته الناس • ولا أدرى كيف آخر الأمر صير بنا إلى قراءة الكفوف • الخط الطويل للحياة ، وكل من تقرأ كفه عمره طويل وتعتريه أمراض يتغلب عليها ، والتى فى يدها خاتم زواج يقال لها عن المال والسعادة ؛ نعم بكل تأكيد،هنا خط النصر النهائى والتغلب

على صعاب العواطف ونيل المراد • وتكون المتحدث إليها أحسن نصفيها الذى قد ذهب وقد طال تعنيسها • وتعطو شابة حقا تبتسم وتعلم أن قراءة الكف عسى ألا تخلو من مؤانسة غزلة •

« وهل هن والفتيان الا شقائق »

وأشرقت الشمس واستشرى منظر الخضرة استشراء كل منه البصر• ثم غام الجو فى اليوم التالى وكان عطلة آخر الأسبوع • وقبعنا طوال السبت والأحد إلى المساء فى غريفة جلوسنا نستدفىء وأنا أنشد صاحبى : —

أقول وطال فى فعليل يومى وأسلنى الملال إلى الضان
وقد حجب النهار الضوء عنى وحز البرد أطراف البنان

وهى كلمة • ويوم الإثنين فرغنا من عملنا قبل الغداء بمدة ومضينا إلى غريفتنا • وعدنا إليها بعد الغداء والمطر يهمى طلا رتيبا •وماهو إلا أن جاء رب الفندق ينظر إلينا نظرات تنذر بهجوم • « لماذا لا تستعملون غرفة الجلوس؟» ونحن نعلم لماذا•لأنا — قلنا — نحب هذه الحجرة وتعودنا عليها وهى دافئة • قال كأنه يوشك أن يكون مغضبا : « ولكن دفئها يكلف فلوس (قف بالسكون على لهجة ربيعة لتجيء بجرس شبيه بجرس كلمة Money كما وقف عليها صاحب الفندق) • ولما فهمنا جزعه من استهلاكنا الغاز والدراهم حتى هان عليه أن نكون بالصالون ، صرنا إلى الرضا بما رفعنا إليه من درجاته • وأطفأ الغاز • وجلسنا للقهوة بالصالون• وقال إنه سيوقد الفحم بعد قليل •

وفى العصر لما أوقد الفحم وجلسنا للشاى ؛ قال لاشىء ألطف من

نار الفحم • ستدفأ الغرفة عما قليل • إبنة زوجتى احتفال عيدميلادها غدا ، يمكنكما أن تحضرا فاحضرا • وحاولنا اعتذاراً فقال : ندعوكما ، سيكون رقص ، طبعا تعرفونه جيدا • وأنى له أن يعلم أن أولاد العرب بالسودان لا يرقصون ، وأنه يوشك من رقص أن يظن يعمل عمل أهل القريات • على أن أصنافاً من الرَّهْز قد جعلت تدب بين طبقات فى البنادر منذ ظهور « التم تم » والعياذ بالله من الردة بعد إيمان •• وأحضرنا زجاجة هدية له تنوب عن حضورنا احتفال ابنة زوجته • وطابت لنا نفسه فسألنا كيف لم نمتعض من الغريفة الصغيرة كما امتعض من قبل أحد الهند غربيين West Indians واتهم بأن فيها تمييزا عنصريا • وتعجبنا من سؤاله ومن أن يدور مثل هذا الاتهام بخلد أحد • وهل كمثل دفئها شيء ؟

ومن يَعْصِ أطرافَ الزِّجاج فإنه
يطيعُ العوالى رُكِّبَتْ كلَّ لهذم
ومن لم يصانع فى أمورٍ كثيرة
يُضَرَّس بأنيابٍ ويوطأْ بمنسم

* * * * *

ذكرى ١٩٤٦ – فى – ١٩٦٤

ذهبا إلى مسز جونز بكردف من مدن ولز الجنوبية • وذات يوم إذ يسيران فى الشارع الكبير أمام المحطة الكبيرة رأيا شتى وجوه ملونة ألوانا يعهدانها • واستمعا فإذا ألْسُنٌ عربية وإذا القوم

صوماليون . فتحدثا إليهم وكانا يعلمان أن فى كردف سودانيا ووصفوا لهما منزله.فسارا وراء حيث المحطة ووراء رصيف الخط الحديدى ، فى مدينة كردف أخرى ليس لمنازلها بهجة كردف الأولى . فى الأولى حيث مسز جونز منازل ذات ستائر وحدائق صغيرة أمامها ، يحيط بكل حديقة صريف أخضر مقصوص ، وراء جدار أقصر منه ، وهو ثخين ، أى الصريف الأخضر ، ريان . ودونه ميدان صغير مقصوص الحشيش . فى أركانه أزهار وجبليات صغار.وفى الجانب الخلفى من المنزل حديقة أخرى كبيرة ذات ميدان حشيش أكبر ، تراها إن كنت فى المنزل ، أو مر بك القطار فيما بين المنازل .

وحيث المسز جونز ، المنازل نظيفة المظهر ، كأن المطر الذى يهطل كل يوم لا يفعل ذلك إلا ليغسلها . والطوب الاحمر غالب وغيره من الألوان واضحة عسى أن يكون فى بعضها عَرَق العِتق .

أما فى كردف هذه التى وراء الرصيف كأن المنازل كلها من الأسمنت . ولاخضرة فيها ؛ كل شىء مرصوف بالأسمنت . وفى بعض الطرقات رسم بالطباشير . هنا سود . إفريقيون أو هند غربيون ، يلعبون النَّفَنْزَجْ . قال العجّاج يصف الظليم أى ذكر النعام :

كالحبشىِّ التفَّ أو تسبَّجا
فى شَمْلةٍ وذات زِفٍّ عوهجا

حتى قال :

فَهُنَّ يَعْكُفْنَ به إذا حجا
عَكْفَ النبيطِ يلعبون النَّفَنْزَجا

وذات الزف العوهج هى النعامة. والزف مالان من الريش. والعوهج البيضاء . والكلام مربوط بآخر قبله فارجع إليه أن شئت فى مجموعة أراجيز العرب للبكرى .



وفَنْزَجُ نبيط كردف مربعات يرمون عليها الحجارة فيصيبون ويخطئون ، ويكون ذلك قماراً بينهم فى النهار المبصر فى بلد يمنع القمار فى الحانات وكأنه لايبالى مايصنع هؤلاء أو ما لا يصنعون.

ودلّهما منظر الإفريقيين والهند غريبين على أنهما فى حيّ السودانى الذى خبّرا عنه بعد أن كاد يخالطهما أنهما قد أخطأا الوصف الذى وصف لهما . وداخلهما الجدُّ الذى يكون عند مقاربة الاهتداء . فأسرعا خطاهما . هما كغيرهما فى هذا المكان المختلط المختلف ألوان الناس وسحناتهم ، إلا هذه المعاطف الجيدة عليهما والملابس المحتشمة المحترمة ومشية وسمت يدل على غير بحاريّين ، كقول عمر أبى ربيعة : —

رأتْ رَجُلاً أَمَّا إذا الشّمْس عارضت
فيَضْحَى وأمـــا بالعشىّ فَيَخْصَرُ
قليــلاً عــلى ظَهْــرِ المَطِيّة ظِلُّه
ســوى ما نَفَى عنـــه الرّداءُ المحبَّرُ

فدلَّ على سَرِىٍّ قرشى بقوله الرّداء المُحَبَّر ، إذ قد جعلها تفطن لردائه وهو أشعث أغبَرَ ضئيل الظلّ على ظهر الناقة ، كما أنه هو نفسه قوىّ الشعور بوجود هذا الرداء المُحَبَّر .

وإذا ببناءٍ ذى نقش ما على أعلاه أبيض ، وشَبَحٌ حَوْلَه كث

اللحية ، ضخم العمامة كأنَّ عليه مشاجبَ من ثيابٍ ، عباءات فوقهنَّ عباءات . السلام عليكم وعليكم السلام ورحمة الملك العلام . أهذا جامع وإمام ؟ نعم وربِّ الكعبة التى قيل إن شارل مارتيل هدّمها بحديد فرسانه فيما بين تور وبواتييه فى وادى اللوار .
ولاح آخر ذو طربوش ، حليق ناعم كالسحلية (١) ولعله أضرَى من الأصَلَةِ التى تصطاد الظباء،وأدرب بمعاملة أصناف الخشونة البشرية من أبطال الأفلام الأمريكيـة ، مثل كونراد فيـدت فى كسبلانكا .

قالوا إن الأصلة تعمد إلى شجرة كالطلحة لها بَرَمٌ أصفر كاس . البرم جمع برمة بفتحتين وهى زهرة الطلح . والطلح من أشـجار العضاه كالسنط والسدر والسلم والسمر وهلم جرا

فتصعد الأصلة الشجرة حتى تصل أعلاها ثم تهزّ بها هزّا فيتساقط البرم الأصفر على الأرض . فيجئ الظبى حذرا فلا يرى شيئا . والبرم يعجبه . فإذا اطمأنّ انحنى يأكل . والظبى شره جدا وشرس جدا فيما بلغنى . أحسبه شرسا من أجل أنه مليح . وكل مليـح « مَلاَح » يأكله الهوى أو تأكله البطون . والملاح بضم الميم هو إدام الطعام باللهجة السودانية . وقال الآخر :

فلو كنـت عُذْرِىَّ العلاقـة لم تكـن
بطِيناً وأنساكَ الهوَى كثرةَ الاَكل

هـــذا
وبمجرد انهماك الظبى فى أكل البرم تنحدر الأصلة فى لاصوتٍ

(١) السحلية ضرب من العظاء وهى من أصناف الضباب حسنة اللون .

وفى صبر بطىء يَرْمُق غرضا يريد بلوغه لايحيد عنه • فإذا بلغت أصل جذع الشجرة أخذت تزحف فى لاصوت وهذا أعسر عليها، وفى بطء مرهق وصبر قاس لاترى غير الظبى الغافل • حتى إذا صارت إليه المسكين وثبت وثبة نَهِمٍ مُغْرَمٍ حاقد لئيم غشـــوم عارم فعضّت • ووضعت قرنيها فى أنفه • والتفّت حولـه فى سرعة العفريت عمياء بلذة القرم الهوجــاء

وبالماء قيس أبو عـــامرٍ يراقبها ساعةً أن تصوما

هذا البيت يقوله ربيعة بن مقروم الضبى يصف حــال الصـــائد المتربص ، يراقب الحمر الواردة أن تقف ساعةً ليرميها •

وههنا يوجد أيضا صائد مثل قيس أبى عامر ، غير بعيد ، يرقب الأصلة أن تنهمك فى الصيد • وهى إذا انهمكت عملت أشياء كثيرة معا : تعض وتضغط على الأنف بالقرنين وتضغط على الأضلاع ، وتمط الظبية مطا لكى تقدر على ازدرادها فى يُسْر من بَعْد • وتكون كأنها مجنونة أو مغمى عليها حينئذ لاتحس حولها شيئا • والظبية فى أشد الألم حتى تموت •

فإذا انهمكت الأصلة فى الصيد جاء قيس بحربته وحبـــاله فقضى عليها وسلخها فباع جلدها وأكل الظبى وادخر لحمه وباع جلده وفى الشرق الأقصى يأكلون لحم الأصلة أيضا • ومن الناس من يأكل الثعبـــان •

ومن الثعابين مايكون طويلا ضخما قاهرا كأنه أصلة•ونحو هذا كثير فى أرض النيل ، ولايتعدى على أحدٍ ولا يهاب أحدا • يقال أخذت فتاة فأسها وقصت أثره تريد قتله وله كشيش ، وهى تراقبه

وتسعى وراءه . حتى إذا بلغ موضعا منه يستدير إلى حيث كـان يختبىء التفت اليها برأس كرأس العتود ورمقها بنـظرة فكمتت وبيدها فأسها . ثم صاحت إلى عمها وكان غير بعيد . هذا الثعبان كريه تعال يا عمى فاقتله ..... ولم يزد العم على أن قال دعيه يابنية هذا « هام » لايقتل ولايقدر أحد على قتله . فانصرفت . والهام هو الثعبان الذى أصله من الجن وفى قصة أبى زيد :

عضتانى هـام أب همايـم

ضربتـه بيـدى أم ختايـم

خليت سمه فوق الْمـا عايـم

أى عضنى ثعبان شيطانى فضربته بيدى التى فيها الخواتم فقتلتـه فسمه عائم على الماء . لا أدرى قال هذا مرعى أو يحيى يخاطـب أبا زيـد سلامـة .

ولما ذهبنا إلى أرضنا بالنيل الأزرق بالسيارة ، منذ أسابيـع نزيرها أديبا تونسيا كبيرا ، رأينا ونحن على وشك العودة ، بل قد تحركت السيارة،غَبَرَةَ ثعبان أسود طويل زحف متموجا من فوق إلى تحت نحو النهر . وهممت أو أوطئه السيارة ولا أدرى بعد لم لم أفعل . وقص علىّ أخ كريم أنهم عسكروا بجبل موية فاختاروا رابية للمعسكر وكان ذلك منهم خطئا ، لأن الرابية فى مثل ذلك المكـان إنما تكون قد نشأت من تراكم التراب على خرائب أبنية قديمة من الدهر السالف . ومثل تلك تأوى إليها الثعابين ويكون

بطن الوادى أفضل للمبيت والمقيل منها • ولما جلسوا المغرب ، قال صديقى ، على كراسى الرحلة ، إذا برءوس الثعابين من شتى الأجحار • وما هو إلا أن قضوا من الليل جزءا صالحا ممسكين ببنادقهم كلما ارتفع رأس ثعبان ألحقوه طلقة • وخافوا أن يتهمهم عمال المعسكر بالجبن • فلم يفارقوا رابيتهم ليلتهم تلك • وضربوا ثعبانا فانثال مع موته بيضه : كانت أنثى حاملة • وزعم لى أحد مدرسى العلوم الطبيعية ــ وما أشبه أن تكون مقالته من قبيل الخرافات ــ أن بين رءوس الثعابين والبنادق ذات المواسير الطويلة جاذبية شديدة بحيث لايخطىء مصوب البندقية إلى رأس الثعبان أبدا • وهذا غاية الجبن منه البائس •

وقوز الدامر الكبير الذى غربيه الجامع القديم كأنه قام على أنقاض مدينة هليوبوليس المرويين القديمة • إذ لا يعقل أن يكون قوز رمل طبيعى التكوين • وفيه من الثعابين ما يسكن فى هذا الضرب من أقواز الخرائب ، ضرب أسود قصير ثخين تستخرجه الدجاجة وأخوتها فينقدنه بمناقيرهن حتى يموت • والدجاج من الطير المسلم • قال جرير :

لما تَغَرَّبت بالدَّيرَينِ هَيَّجنى
صَوْتُ الدَّجاج وقَرْعٌ بالنواقيس

وقرع النوقيس أشبه بالديرين إلا أن جريرا لإسلامه كان أحب إليه صوت الدجاج • وقال أبو نواس :

ذكر الصبوحَ بسُحْرةٍ فارتاحا
وأملّه ديك الصباح صياحا

وإنما أملته لأنه ذكره الصلاة وهو يهم بعصيان • ولو كان جاهليا

لهشٌ له كالذى فعل لبيد حيث قال :

بادرت حاجتها الدجاجَ بسُحْرةٍ
لأعلَّ منها حين هبَّ نيامها

هلو ترنك صوت حلو .. قرية كذا ... ماذا ؟ .. اطلبى المدينة الفلانية تخبرك بها ، من فضلك يا آنسة بسرعة . حاضر، ضرورى . شكرا ... العفو .. رقم تلفونك .. كذا كذا ... ضع السماعة .

ومر ربع ساعة وقال : لماذا لم تجىء النمرة ، أنظر مرة أخرى، أطلبها . وقام صديقنا ليطلبها ورفع السماعة.بز بز خشخشة..

الحمد لله التلفون خسران ... اسمع ...

ماذا خسره ؟ ... لا أدرى ... ننتظر .

ورفع صديقنا السماعة بعد مدة . لقد صلح التلفون . يا آنسة طلبنا منك نمرة كذا ... حاضر ...

.. بز بز بز ... خسران .. ثم خمس دقائق ورفع السماعة ، صلح التلفون ، يا آنسة طلبنا منك رقم كذا ... ماذا ؟ قرية قرب مدينة كذا ... حدثتك من قبل . لم تحدثنى . نحن هنا ست بنات . ياللضيعة ، لسان حالهما . حاضر بسرعة . شكرا . آسف. مادام الأسف . ثم صلاة المغرب أو لعلها العصر

إن الصلاة أربع وأربعُ
ثم ثلاث بعدهن أربع
ثم صلاة الصبح لا تُضَيِّعْ

وجميع الصلوات بكردف ضائعة إلا من رحم ربك وإلا صلاة العيدين والجمعة وبعض الخمس بين هؤلاء المسلمين الملونين القاطنين وراء الرصيف . ودلهما الأملس الوجه على شارع يؤدى إلى الشارع الذى كان فى مكان غير بعيد من بيت السودانى واسألوا الدكان الذى قرب الـ ... هل قال ذلك ؟

ونقرا البابَ أو ضغطا زره وجاء رجل كان قوى البنية قد انهار وهو يتماسك ببقية من دارس فتوته ، وكان ط.ص. محسيا من أهل أقاصى ما بين عبرى وكرمة . ولاقاهما بترحاب عريض عميق صادق . طال عهده بسودانى .

وكان وحده . ولابد من العروض . ثم خرج وعاد . ولابد من الغداء. دمعة ودجاج وخضار. « فين رايحين ؟ تتغدوا هنا ... جيسس كرايس » تعلم هذا التعجب من البحارة الأفرنج . ونسب لهما نفسه وقال إنه يفهم أولاده بنسبهم . جيسس كرايس ... ثم يسعل . إنه مريض حقا . أنتم يا أولاد مسلمين محس سودانيين.. انتو فاهمين جيسس كرايس . وجاء الأولاد . ولدان وبنت. كلهم كأبيهم صباحة إذ لاشك أن أباهم كان جميلا فى روق شبابه وأراهما صورته ليؤكد ذلك. ما أشد شعوره بذهاب قوته وشبابه.

يا لهف نفسى على الشباب ولم
أفقد به إذ فقدته أمَمَا
إذ أسحب الرَّيط والمروط إلى
أدنى تجارى وأنفض اللِّمما

وتذكر أيام كان ابن العشرين وكيف خرج من دياره مغامرا وهو فتى دون ذلك . وقال : لى تسع عشرة سنة فى هذا البلد. لقد حدث

أيام كنت شابا . وأخذ يقص ولايكاد يتذكر ولا تستقيم له اللغة لا عربيتها ولا إنجليزيتها . ونهض بهيكل جسمه العظيم ليصنع لهما الطعام . وسألا الأولاد فقالوا نحن « ولش » أى ولزيون . ولأهل « ولز » وطنية يتعصبون لها إزاء الوطنية الانجليزية وهم فى هذا كأهل اسكتلندا أو أشد .

وقال ط.ص. جيسس كرايس . انتم مش ولش . قولوا نحن برابرة محس سودان .

وحدثهما أنه يفهمهم ذلك كل يوم . وسألا الأولاد ، فكانوا يعرفون شيئا من العربية قرأوه على إمام الجامع وأقرأهم من القرآن . هم ولش ومسلمون . يعلمون انهم مسلمون . لا إله إلا الله محمد رسول الله . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم .. لا بهذه الفصاحة طبعا ... ولكن كلمات الإسلام والعقيدة هذا عندهم بلا ريب ، مع أن الاسماء عند الأب عربيــة ، وعند الأم ـ واسم الام هو الغالب ـ إنجليزية . والبنت أعرف بالعربية . والمجموعة المسلمة بكردف كأنها أحرص على تثبيت البنات فى العربية والإسلام ، فى الإسلام والعربية . جيسس كرايس عندنا هنا جامع وشيخ ومأذون والبوليس يكتب فى الدفتر .

ونجز الطعام . دمعة ودجاج ولحم ورغيف وشطة وسلطة على الطريقة البلدية وشاى . كلوا ... وكرم بلدى بكل أبعاده .

ولم يسألاه عن ربة البيت ... ولكن أخبرهما أنها ذهبت إلى والديها بمنشستر . وأصر أن يبقيا إلى العشاء . وحادث زوجته وقالت إن القطار تأخر فى « كرو » ـ (ملتقى خطوط كبير) ـ وكانت

كهلة لم تضعف ضعفه . وكانت به برة وبأولادها سعيدة وأحسب لم يكن يخلو عيشهم من شدة . ودعاهم فى الغد وكانوا فرحين حزينين ... الأولاد والأم والأب من بلاد المحس أو السكوت أو كرمة أو أرض الحجر . مكان ما بين الشلالين الثانى والثالث . إن أهله لم ينسوه . كان وحده هو السودانى فى كردف كما ذكر م.ع. وكان لم يمت بعد . وكان له العرب من صوماليين ويمنيين وغيرهم أهلا . وكان م.ع. يكاتبه ... والآن زاره اثنان من السودان وأكرمهما وباتا فى داره ورأيا ابنته وولديه وأهله . . . واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام .

وأحدهما شهد بعد دهر احتفالا فيه روايات وأغانى هواة من الجالية الأفرنجية بالخرطوم . وكان مما تغنوا به الكلمة الشعبية من أغانى عصر فكتوريا :

ياسيدى الفرّاش ماذا أصنع
أريد أن أذهب لبرمنجهام
أخذونى إلى « كرو »
خذنى إلى لندن ، كأسرع ماتقدر
ياسيدى الفراش
يالى من بنت بلهاء

ورنّت فى أذنه كلمة « كرو » . ليت شعرى ـ قال لنفسه ـ كيف الآن أسرة ط.ص. فى مدينة كردف الميناء ؟

أما ط.ص فقد توفى . وقد زاره قبل موته ابن عم له لحتا من أرضه بين الشلال الثانى والثالث . وقد حضر مأتمه وقام به فى جماعة . جيسس كرايس . لقد رأى أولاده حسبه ونسبه قبل أن يموت..

مات سعيدا . وبنته تزوجها عربى مسلم بكردف . وأبناؤه مهرة متعلمون مستوى معيشتهم مضمون .

الا لَيْت شِعْرِى هَلْ أبيتنَّ لَيْلَةً
بجَنْبِ الغَضَى أزجى القلاص النواجيا
فليت الغضى لم يقطع الراكب عرضه
وليت الغضى ماشى الرِّكابَ لياليا
لقد كان فى أهل الغضى لو دنا الغضى
مزار ولكن الغضى ليس دانيا
تقول ابنتى لما رأت طول رحلتى
سفارك هذا تاركى لا أباليا
الم ترنى بعتُ الضلالة بالهدى
وأصبحتُ فى جيش ابن عفّان غازيا
وأصبحت فى أرض الاعادى بعدما
أرانى عن أرض الاعادىّ نائيا

* * * * *

سنة ١٩٦٣

ليلة ماطرة بالقصر فاختل نظام الدعوة التى كانت فى الحديقة فإذا القوم فى البهو والحجرات . وإذا بأحدهم يناديه باسمه ، إنه أحد المهمين جدا فى المجتمع الافريقى الآن ، لعله مدير أو وزير ، يذكره جيدا منذ عهد أيام الدراسة فى قلب لندن . وسأله «ع» فإذا هو الآن وزير المالية لبلد كذا ممن استقللن حديثا من أمم

القارة الإفريقية الناهضة . وكان منزل «ن» أعد لإقامة طلبـــة المستعمرات والمحميات وماكان للسلطان البريطانى عليه ظل.وكانت غرفه نظيفة.ظريفة دافئة بالتدفئة الداخلية . وكان فيه الماء الساخن ليل نهار . وحجرتا الجلوس أبدا فيهما نار الفحم لتشعر المقيمين بالطابع الأنجليزى.ولم يكن الطعام ليوصف بجودة أو قبح إذ كان التموين والنقص فى مواد التأنق فى الطهى ضاربا آنئذ بأطناب . وكانت الخوادم فى حجرة المائدة شواب كواعب نواضج الأنوثة رائقات.وساء المشرف على المنزل كثرة أحاديث الطلبةمعهن وضرب من التآنس جعل يدب . فأصبحوا وقد طردهن جميعا واستبدلهن بعجائز شهربات .

بعض الطلبة من الهند غربيين يلفظون :

اســمع يارجــل

وكلمة رجل كثيرة الورود على ألسن الهند غربيين.آنا يجعلونها فى أول الجملة . وآنا فى نصفها . وأكثر شيء فى آخرها وكأن النون غنـّة بعد الألف الطويلة الرقيقة التى كأنها فيها إمالة بـين بـين Listen ma...n مستر هـ . عنصرى يارجل

اسمع يارجل ، مستر هـ . حاسد .

كلمة حاسد هنا ترجمة Jealous أى غيور بمعنى يدل على أن تكون الغيرة حسدا لا حَمِيـّة .

هند غربى لإفريقى : (والهند غربيون يعدون انفسهم أرقى مـن الإفريقيين من أجل أنهم أقرب إلى البيض ، قرب طول الجـوار ، جوار ما)

الهند غربى : رأى شباب بياضهن الملتهب يارجل فغار من حديثهن معكـــم يا أولاد

الإفريقى : اسمع يارجل ، مستر هـ • وغده مخه وسخ يارجل • (الإفريقى لايعرف استـــعمال كلمة « رجل » فى آخر الجملـــة وأولها ووسطها كما يعرفها الهند غربى ، ويقلده ، وينطقهابخشونة المخارج الإفريقية،لأناللغة الأنجليزية بالنسبة إليه ليست لغة الأم كما هى بالنسبة إلى الهند غربى •)

ــ اسمع يارجل ، مستر هـ • عنده جواسيس يقولون له هؤلاء الأفريقيون يتحدثون مع البنات البيض وهذا لايعجبه •

ــ محزن ذهاب مس م •

علق أحدهم وابتسم الهند غربى وأبدى أسنانا بيضا كثيرة •

ــ محزن ملعون يارجل

ــ والنونات التى فى خدها • حاسد مستر هـ •

ــ عنده شعور بالكبت الجنسى العنصرى

ــ استعمارى يارجل

بعض الأسيويين يوافقون على تهمة العنصرية من غير حماســـة إذ عندهم أنهم آريون كالإنجليز والألمان • وعلى هذا يكونون بيضا وإن غشى ألوان جلودهم سواد ، ويكون بياضهم مستترا وجوبا كالضمير فى أكتبُ وقمْ وخلا وعدا • قد كانوا يظنون أن سبب غيظهم من طرد الشواب حرمانهم من فرصة أن يتحدثن إلى مدنيتهم على أنهم كانوا يحسون فى أعماق سريرتهم أن دافع طردهن كان غيرة عنصرية من المستر هـ•لم يكن المقصود بها الإفريقيينوحدهم•

لقد كان يغيظهم جدا أن الأوربيين يحترمونهم فى الكتب لا فى المعاملة اليومية ، يحترمون أخبار أجدادهم ويحتقرونهم هم . لعلهم لو قد بعث أجدادهم لاحتقروهم أيضا .

كانوا يتحدثون بحذلقة ويقطعون أحاديثهم بالضحك من دون أن يكون ثم أمر يضحك ، يرون أن الضحك مثل النقطة والفصلة والنقطتين فى الجمل المكتوبة ... شىء يستقيم به تركيب المحادثة

ـ هذا طرف الإسفين الدقيق

ـ أسلوب فرّق تسد .

ـ اللامقاومة فيها أشد مقاومة

ـ والنفاق يجعلهم يخطبون ولا يفعلون

ـ ولكن هناك عامل اقتصادى هام

ـ قه قه قه قه ـ والترباتر كان وحده العقل المفكر فى تلك المجموعة

ـ ماتفتكر يارجل ! مستر هـ . عنصرى

ـ عنصرى . هذا حيلة قذرة

وكان «مب» طويلا مهيباجليلا مرفوع الرأس فىملابسه المسلمة. وكان امرأ يكن فى أعماقه ابتساما عريضا تفشيه نظراته الجزلةوقال

ـ الفتيات اللاتى كن يخدمننا كن شابات وكان شعرهن قويا

ثم قال بعد إنصاتة أنصتها من كان يحادثهم

ـ والفتيات اللاتى يخدمننا الآن عجائز وشعرهن ضعيف ونجده فى الطعام .

وبعد أيام أعيد النظر فى الخوادم فجعل بعضهن شبابا وبعضهن غير شباب .

ألاليت الشباب يَعُود يوماً   فأخبرَهُ بما فعل المشيب

كان والدنا الفقيه عبد الله كثيرا ما يترنم بهذا البيت .

وكانت القيمة عليهن تتصابى وقد مضت عليها أحقاب وأكل الدهر عليها وشرب . وكان لاحدى الفتيات نقرتان فرحتان فى خديها . وعيناها ناعستان ضاحكتان . ولها كفل محكم ناضج .

وكان «مب» يساير «ع» فقال له : كل فتاة فى لندن بيدها حقيبة يد . ولو وُضِعَتْ حقائب أيدى الفتيات كلها فى وسط حديقة « هايد بارك » لصارت تلا عظيما . وأنا لو صعدت على هذا التل لرأيت ميناء سوثهامبتن التى منها أركب السفينة إلى بلدى . بقى كذا يوما للعودة . وبعد شهر يبقى كذا يوما . سأركب الطيارة لأنها سريعة ، وما من الله سيجىء . وبمجرد وصولى سأتزوج أخرى على التى عندى .

وزار جامعا كانت تتحدث عنه الفتاتان راء وياء ، فقد كان أزارهما إياه بعض زملائهما المسلمين . وكانت راء قصيرة تلبس بنطلونا . وياء طويلة تلبس فستانا . وقالت راء : «كان موقفا محرجا» وقالت ياء : « كان محرجا جدا . » ثم شرحتا هذا المحرج بأن راء ضحكت لما رأت الجماعة يسجدون . لم أتمالك نفسى من الضحك . متأسفة . ولكن لا يقدر ان يتمالك الانسان نفسه من الضحك (تضحك منى أن رأتنى أحترش) (١) . وأفلام هوليوود مولعه بعرض منظر السجود فى الطنز (٢) بالمسلمين ، تراه مضحكا ، تريك المصلين من وراء . ولما عَرِض منظر سجدة القائد الروسى فى فلم الحرب والسلام أرته من أمام .

---

(١) الاحتراش اصطياد الضباب والصائد يبرك امام الجحر ويحرك يديه .

(٢) الطنز : السخرية .

فتأمل ! ! وكان الإمام ذا لحية كثة وشارب حليق ومعه مساعد له ذو لحية كثة وشارب حليق • وكان الإمام دحداحا قصيرا تلتمع عيناه بذكاء وفكاهة أكسبتها إياه التجربة وطول الجداول ودقة الذهن لا انه فكه حقا ، فقد كان فنطيقيا لاريب فيه•وكان مساعده طويلا ضخما ذا لانصيب من الفكاهة لغباء عينيه ، وكان فنطيقيا أيضا • وتحدث الإمام عن التفسير : « من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل •• إلى آخر الآية » • وعنده أن الوجه هنا : من ينسبه الله إلى الضلال،فرارا من أن يكون الله هو مسبب الضلال،والشاهد «ومازال شربى الراح حتى أضلنى صديقى» أى نسبنى إلى الضلال، لا جعلنى ضالا ؛ بهذا ينبغى التفسير • وكل هذا كأنه اعتذار إلى المستشرقين عما ينتقدون به كتاب الله ، يقولون : كيف يضل الله الخلق ، وكيف يجوز لله أن يمكر ، أو أن يمد لأحد فى الضلالة وهلم جرا • وكتاب الله فى غنى عن أن يعتذر له مسلم لدى متعصبى النصارى والمستشرقين أمثال مرجليوث مثلا وغيرهم من أهل الملل كأننا ما كان يقولون • وغير خاف عليك أن الحديث عن أمثال «مكر الله » و « من يضلل فماله من هاد » ليس لعمر أبيك مرادا به غير الطعن فى الإسلام من طريق الطعن فى الرسول بمراء كمراء من عاصروه بالمدينة أمثال حيى بن أخطب

وفى تعب من يحسد الشمس ضَوءها ويجهد أن يأتى لها بضريب

وآية عَدَم صدقه ، وشاهد تعصبه،أنه يفرض أن مسألة حرية الإرادة قد فُرِغ منها،فما يُشْتَمّ منه الجبر يدل على ضعف وجمود

واعتذار الإمام الذى ذكرنا « ومازال شربى الراح حتى أضلنى»
إنما هو ضرب من استشعار النقص المقارف الكفر أو الواقع فيه.
والإسلام له فى أمر الذات وصفاتها مذهب معروف

ومنه أن ينظر بالأبصار   لكن بلا كيف ولا انحصار

ومن كانت له الذات العلية هدى وأضل وإن رغم أنف مستشرق وغير مستشرق ، اللهم اجعلنا ممن هديت غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

وإنما كان الإمام ومساعده وصاحب ثالث لهمالم يلقياه يومذاك جميعا من فرقة معجبة بالمسيحية الغربية فى عدة أمور . منها التبشير للافريقيين . المبشرون المسيحيون يفعلونه غَزْواً وفتحا وعقيدة . وهؤلاء ، أعنى الإمام وفرقته ، يفعلونه ليقنعوا أوربا أنهم متمدنون ينبعون اسلوبا متمدنا كالكنيسة ، لا الجهاد ، الله أكبر ، كما هو شائع عن عقلية المسلمين .

وأراد أن يبشر لهما لأنهما إفريقيان . وسألهما عن المهدى الذى فى السودان هل حقق رسالته . واستفسر بالسؤال.وقال «ع» نعم فقد هزم الاجانب وقتل هكس وغوردون . وقال الإمام الجدلى : كلا ، ليس هذا تحقيق رسالة . هذا حرب وعنف . ولكن هل عاش ليحقق رسالته أم مات؟مات بعدفتح الخرطوم.لم يحقق رسالة. مات ومولانا المسيح كان على قيد الحياة . ومولانا المسيح قال من يقوم بدعوى المهدية فى حياتى ويكون كاذبا يموت قبل أن يحقق رسالته وأنا حى. ومهديكم مات ، ومولانا المسيح حى ، فهذا يدل على أن مهديته كانت باطلة .

ومولاه المسيح الذى كان عنه يتحدث لا يسبقن إليك أنه سيدنا عيسى بن مريم ، ولكن أحد الكثيرين الذين ادعوا النبوة بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم غير مبالين بقوله تعالى : « رسول الله وخاتم النبيين » وقد ذكر منهم أبو العلاء جماعة فى رسالة الغفران فهذا يضاف إليهم .

امتعض « ع » من الطعن فى مهدى السودان ونافح أولا بذكر فضيلة ما قام به من الجهاد . ثم لما رأى الإمام المسيحيانى ينقص من قدر الجهاد على وجه العموم ، أخذ هو يهاجم فكرة المهدية بما قال ابن خلدون وبغير ما قاله ابن خلدون : تذكر مثلا كيف أحزنته غفلة تاشفين عن أمر محمد بن تومرت حتى أصاب ملكه ما أصابه من عبد المؤمن ولعل مهدية محمد بن تومرت كانت مما طوّح بعرب الأندلس إذ أنها هدت المرابطين ولما يضعفوا بعد ، وكانوا غيارى على الإسلام ، وقد بدأوا يتمرسون بركوب البحر وقتال الأفرنج . وما قضاه الله كان . ولم يكن الموحدون بأشداء فى أمر الأندلس كشدة المرابطين .

وجعل المسيحيانى يدافع عن فكرة المهدية إذ عليها قائم أمر مولاه المسيح كله . وأبى بَعْدُ عنادا وإصرارا ألا يقبل مهدية مهدى السودان ليته مُنِيَ بأنصارى أشوس كالعوض بن عبد العال : —

وكان يجلس فى مجلس الفقيه عبد الله فى طرف ، ملتزما سمت التلميذ من الأدب على سنه المتقدمة . وكان ضئيل الجسم صليبا عيناه تشعان بتحفز ينبىء عن حقيقة معدنه . وفى يده فرّار (1) كان يقاتل

---

(1) الفرار : فأس صغيرة .

به أيام كان الأنصار • ولم يفارقه حتى بعد «كسر القبة وقلب الجبة» (١) وعلى رأسه عمامة إحدى تكويراتها تحت أذنيه ولها عذبة •

والفكى (٢) عبد الله الوديع الوجه ، القديس النظرات ، المتواضع الحليم العزيز المنيع ، كان يوده ويستنشده •

وكان كثيراً ما يتفق حضورُ الشاعر الكردى نشيد العوض رحمهم الله جميعا وعطر ذكراهم •

وكأنى بالعوض ينقر بفرّاره الارض ، لا يصل به إلى الارض حقا ، وإنما كان يوقع به لنفسه •

قـــت بالعـــلى العـــالمـــا ... لل فى الأرِض والسما
مهـــدى الله طبى القاســـما

وهى كلمة طويلة مطلعها

قلبى مشتاق للإمـــام ... مهدى الله طبى القاسما

وهذا المطلع يكرره الحاضرون بعد كل بيتين ويجىء العوض بآخر شطرة فيه أو بجزء منها بعد كل بيت كما رأيت •

وللعوض فيها أسلوب رنان كوقفته عند اللام قبل أن يصل إلى الجيم فى قـــوله :

مهـــدى الله بيعلمـــا ... من قبـــل الجد آدمـــا
مهـــــــدى الله طبى القاســـما

---

(١) هذا مثل معناه قوة الولاء للمهدية حتى بعـــد ان كسر الفاتح قبة المهـــدى واجبر الناس على التخلى عن زى جبة المهدية المرقعة •

(٢) الفكى : اختصار الفقيه ، هكذا يقولون فى لهجة السودان •

ثم أيضا يكرر الراء ويدورها من قوله :

مهـــدى الله المنتظـــر من شك فيك قد كفـــر

وصوته بذلك جهير ، لو سمعــه ذو اللحية الكثة المسيحيانـــى لملىء منه فرارا ورعبا •

مدافــع الباشا ضَرَبَنْ رش وزى الموية تحت القش

ولما عاد إلى المنزل حيث كانتا يسكنان قال مب « لا احب ذلــك الرجل » يشير إلى إمام الجامع « إن دينه فيه بدعة وأريد أن أعيد صلاتى » •

وأصاب فقد كان سنيا مالكيا سليم الفطرة لايشك أن من ادعى النبوة بعد محمد كافر • وكان الإمام الجدلى حدثنا عن قرآن صاحبه • وجماعة من الإنجليز قد اعتنقوا هـــذا المذهب لِغَيْر بُعْدِهِ كثيرا عن الذى كانوا عليه من التثليث

ـ نحن المسلمون الأفريقيون نحب العرب وننسب أنفســنا للعرب من أجل محمد وأنت أيها العربى المسيحى ينبغى أن تخجل من نفسك لانه لافائدة فى العرب بلا إسلام •

وأحسن الكميت إذ قال يمدحه عليه السلام

بك أجتمعت أنسابنا بعد فرقة فنحن بنو الإسلام ندعى وننسب

وعسى أن يكون الكميت قد نظر فى عجزبيته إلى قول نهار بن توسعه

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

وكانا متعاصرين

وكان (ط) الصينى كثير الكلام كثير الانفعال ، ساخن تعبــير الوجه دافىء العاطفة ومع ذلك قوى الأعصاب

وكان كثير التعجبات الإنجليزية تعلمها من الجيش : قود لورد !
قود هفنز ! ويغنى الاوبيرا •
يور تايني هانـد إز فروزن
يدك الصغيرة باردة جـامدة
ولم يكن مسيحيا ولكن كان ممن سينضم حينذاك إلى الشيوعيين•
وكان ذا شهامة وتحدث عن الرشوة فى الصين • إن كنت تقبـل
هدايا المال فذاك ، والا فالأفيون ، والا فالنساء وإلا •••• لا
يعجزون عن شيء ولا يتورعون عن شيء ••• ولا يخلو امرؤ من
ضعف تصل الرشوة إليه من طريقه •
وتحدث عن تقليد شبان الصينيين للأوربيين والأمريكيين حتى فى
الأسماء نابليون ، ولنجتون ، وشنجتون •
وكان الذى صار وزير المالية يلاعبه البلياردو • وكان هادئا يتأنق
فى أسلوب لعبه ويقتدر • وكان «ط» يستعجل ويندفع ثقة بملكة
يده وعينه • وكان مما يخطىء فينفعل ويصـيح • وكان الآخـر
يبتسم فتبدو له أسنان بيض • وكان يبدو عليه انه موصـوف
بالملكة الإدارية وسينجح •
كذلك بدا وهو ينادى «ع»•وكان إشراق ابتسامته وعينيه يتألق في
العاصفة والمطر • وهدوءه وتأنقه وهندامه وغليونه ورقة شفتيه
بالغليون ولم تكونا حق رقيقتين • وسأله «ع» عن زميل له كان
معه أيام المنزل فذكر أن حاله ساءت ، وكأن صلة ما بينهما قـد
انقطعت ••• قد كان « أ » حيبا ولكن كانت فيه رعونة•هل انهمك
فى الشرب ؟ (ج) الوزير يكره أن يفيض فى هذا الباب وفى الذى
يقول مشعر ببعضه

وانطفأت تألقة وجه «ج» لما خالطت الملكة الإدارية ما خاضا فيه قليلا من حديث السياسة .

ــ هل تأتيكم إعانة ؟

ــ نعم من كل مكان .

ــ الأمريكان ؟

ــ الأمريكان والروس واليوغسلاف والبلغار والهنغار والإنجليز والصين الشعبية أحيانا والمانيا الغربية وأيضا الشرقية وفرنسا وفى بلدنا عدد من اليونان ... أى شىء كانت المذبحة التى سمعنا بها العام الماضى ؟

ــ أرادوا ليؤثروا على اتجاه الأغلبية بنعرة دمجوجية . ولكنا غلبناهم بحسب التكتيك الدمقراطى ، وكانت أصواتهم بالرغم عن جميع احتيالاتهم وتكتلاتهم دون أصوات حزبنا . والآن الأمور جيدا تحت أيدينا .

كان يتكلم بثقة غافلة عن ريب الخطوب ، ثقة من تلقوا درس التخريج فى الدمقراطية من اتوقراطية الاستعمار . إنك لا تجنى من الشوك العنب . وقد تجنى من العنب الشوك والله على كل شىء قدير .

جيدا تحت أيدينا . وبعد اسبوعين أو دون ذلك أو زد عليه قليلا، شبت ثورة دمجوجية طوحت بالدمقراطية . وشاعت الاخبار أن « ج » من ضحاياها . ثم كذبت الاخبار ذلك . ثم عادت فسكتت عنه سكوتا يريب . أكانت تلك العاصفة التى أفسدت حفل حديقة القصر فلجأ الضيوف إلى الابهاء والحجرات إن هى إلا إرهاص ونذير « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر » ... « وإلى الله ترجع

الأمور » ... يعلمُ خائنةَ الأعيُنِ وما تخفى الصدورُ والله يقضى بالحقّ والذين يدعون من دونه لا يَقضُونَ بشَىْءٍ انّ الله هو السميعُ البصير » « إنا لله وإنا إليه راجعون »

فلا تبعد فكلّ فتى سيأتى عليه الموتُ يطرُح أو يغادى
وكـل ذخيرةٍ لابدّ يوماً وإن عمـرت تصير إلى نفاد

* * * * *

? .... ؟ ١٩٤٦ .... ؟

ابريل أو مايو ؛ لعله مايو

كان ينظر من زجاج النافذة والقطار مسرع . والنظـر من نافذة القطار يعجبه ويملك عليه لبه منذ الطفولة السحيقة .

ـ أفندى لر ـ أفندى لر
ـ أفندى بضبانة ـ أفندى بضبانة
ـ أفندى لر ـ أفندى لر
ـ أفندى بأربع ضبانات ـ أفندى بأربع ضبانات
ـ أفندى بضـبـاتين ـ أفندى بضباتين
ـ أفندى لر ـ أفندى لر

ددق دق ددق دق ددق دق

ـ أفندى بضباتين

يعنون أعمدة التلغراف وهم ينظرون إليها من نافذة القمرة (من دون شك تعريب Compartment) . قالت الشيخة

ترثى الموظف وكان بها برا :

يال كارس ال فارس ال ما بِتنجضّع السبارس (١)

تمدحه بالهدوء والشجاعة وعدم التدخين .

قال جده يتحدث عن مَحَمّودَنْ الشنقيطى ، وكان ، قال ، يدخن ، وكان عالما . فسألته ، هل هذا الدخان الذى يدخنه حلال . فيا سيدنا (٢) خلف رجلا فوق الأخرى ثم قال ، والله ياولدى حرام ، تالله حرام

وكان الإمام المهدى يحرم التنباك ، فالشيخ الشنقيطى أقرّ على نفسه بارتكاب الحرمة ليصحح مذهب المهدى كما ترى . وذلك آية علمه وفضله ويغفر له تدخينه ، إن الحسنات يذهبن السيئات . وأنشدته عمته ابنة عمة أبيه

هَوَيْ هَوَيْ نسير للمهدى فى قدير

السيد إياه السيد
والمهدى الْ فى الأبيض
المهدى رسل مكتوبه
قال لينا صلوا وتوبوا
الحرام اتركوا دروبه
مهدينا ود عبد الله
بسيفه قطع الجلة
والكفرين بالسلة

---

(١) الكارس : الهادىء . الفارس ، الشجاع . بتجضع ، اى ترمى انقلبت الضاد من دال اصله من جدع يجدع . السبارس اعقاب السجائر .

(٢) الفقيه يخاطب الاخر بقوله سيدنا يخفف تشديد الياء ويميل فتحة السين .

بإمالة الكفرين على مذهب القراءة البصرية ، وزعم سيبويه أن الكافرين بالإمالة أكثر عند فصحاء العرب ، ومنهم من يميل الكافرون .

وأنشد صديق له هدندوى طبيب قضى نحبه شابا رحمه الله رحمة واسعة ، وكان صيتا ، وكان يترنم : —

سلم غردون ياكافر للقاعد والمسافر
يا الشارب التنباكا ريى الكريم يبلاكا
هَوَيْ هويْ نمشى له للمهدى فى قدير ،

والهدندوة من أطيب خلق الله صوتا وانشادا ولهم ذرو من معرفة الانسجام والمقابلة يسير . وعلى وزن أغنية من أناشيد السماكين الهدندوة نظم الشيخ محمد المجذوب كلمته : —

ياصحيح الباطن هأنذا قاطن
هأنذا ساكن فى برور سواكن
أهل القيف والحافا مُدْ لَهُمْ ألطافا
كن بهم رآفا يوم الناس خوّافا

اى خوّافه

والكلمة بين العامية والفصيحة الميسرة ، غاية فى الحلاوة .

* * * * *

الضان والبقر الضخام كأنما عليها الملاءات والأشجار الدوحات العظام والشمس مشرقة على الربا والوهاد والشجيرات والحظائر كأنما هى قمر . ولقد نظر أبو تمام فأدق النظر حيث قال :

تريا نهاراً مُشْمِساً قد شابَهُ زَهْرُ الرُّبا فكأنما هو مُقْمِرِ

وشمس إنجلترا إذا سطعت خالط ضوءَها هَبْوٌ من بخار الطلّ، هَبْوٌ لاتكاد تتبينّه أول الأمر،كأنما هو كسرة رقيقة ــ جزء من ألف ألف من المليمتر من الزجاج الشفاف ــ قيل ادخلى الصــرح فلمّا رأته حسبته لُجّةً وكشفت عن ساقيها . وكان عليهما شعر خفيف .

ددق دق ددق دق ددق دق دق

قطار مصر أسرع من قطار السودان
جماعة ضخمة بكوم أمبو يهتفون
وصوت منفرد يقول
يحيا جمال عبد الناصر
بإمالة بين الصاد والراء وهو جهير بذلك
يحيا جمال عبد الناصير !
أول الغيث قطــرة

وفطن باطن وجدانه أن هذه النغمة سيكون لها صدى مُدوٍّ .
لايعلم الغيب إلا الله

اتنبه لانفراد ذلك الهتاف أيما اتنباه
وكأن ذلك كان منه حدسا

إنّ لها لسائقا عَشَنْزرا إذا وَنَيْنَ مرة تغشمرا

وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو

ذكر تفسير الجلالين أن البخارى روى أن مفاتح الغيب خمسة وهى آخر سورة لقمان

« إن الله عنده علمُ الساعة ويُنزِل الغيــث ويَعلَمُ ما فى

الأرحام وما تدرى نَفْسٌ ماذا تكسبُ غدا وماتدرى نفس بأى أرضٍ تموت إن الله عليم خبير »

* * * * *

كان شاعرا وكان مرهف الإحساس من بيت كريم لا يملك نفسه من دعوة يدعوها وجفنه كرام يحبوها •
إذا نزل الأضياف كان عَذَوَّرًا على الحىّ حتى تستقلّ مراجِلهُ
وكان الحاكم العام هدلستون يريد زيارة قريته • وأنبأهم بذلك• وكان هدلستون أخا حرب وسفر • وهو الذى فتح دارفور عام ١٩١٦ وكان يأمل إذ أنبأهم أن يعدوا له وليمة قرية • وكان ذكر أنه سيحضر وقت الفطور وأقل ما كان ينتظر خرفان تذبح وقد يذبحون ثورا أو ناقةً لإظهار السرور

وما فكر القوم فى غير ذلك أو نحو من بابه • إلا أن شاعرنا تقدهم فى الذى ذهبوا إليه• « هؤلاء الإنجليز يجاملونكم إن أكلوا معكم من الخروف المشوى كاملا • أما المرارة (١) فلا تلائمهم ويستقذرونها • الرأى عندى أن نوافيه بنوع الفطور الذى هو معتاد عليه • » وجعل يشرح لهم كيف يمكنهم أن يستأجروا عربات وزمرة من طهاة الفندق الكبير وسفرجيته وأدواته • ذلك سيكلفهم أكثر من ثمن ثورٍ وناقة • وعشرة خرفان مع بخشيش الطهاة • وما يطهون ؟ كورن فلاكس باللبن من بعد جريفروت

(١) المراره : الكرشه والكبد والرئة من لحم الخروف تقطع نيئة معا ويحلب عليها الليمون وتؤكل نيئة .

بالمعلقة والسكر ثم سمك من عجل النيل لا يصطادونه من شاطئهم ـ وذلك ممكن ـ وسمك شاطئهم غض حلو ، ولكن يشترونه الأقة بثلاثين قرشا أو عشرين . ثم الطهاة يحضرن الزبد فى الثلج والبيض يقلونه مع لحم الشرائح « البيكون . » ولحم الخنزير ضرورى للنصارى لايصبرون عنه أبدا لأنه ألذ اللحوم ! الراجح أن النصارى يكثرون أكل اللحوم الخنزيرية ليؤكدوا خلافهم اليهود والخنزير حلّله بولس . ولا يعقل أنه كان فى مائدة عيسى التى نزلت من السماء ولا ذكروا أنه كان فى العشاء الأخير . وحلله بولس بما زعمه من أنه رأى رؤيا مائدة فيها كل شىء وأن المسيح تناول من كل ذلك أو أمر به أو أجازه ؛ شىء من قبيل ذلك كان .

وسأل مسلم صاحبه هل الخنزير المحرم فى القرآن هو عَيْن الحيوان المدلل الذى يحفظ فى الظل بدنمركة ويطعم الكعك والطيبات ؟ ورحم الله ذلك المسلم السائل فقد قضى نَحْبَه وماكان سؤال مع سلامة النية ليضير وسأل مسلم آخر فقيل له (وكان يريد أن يتزندق) إن هذا اتجاه تشريعى.همّ الإسلام بتحريم اللحم كله، ثم اكتفى بالخنزير كما همّ بفرض خمسين ثم اكتفى بخمس ، شاهد ذلك قوله تعالى « كل الطعام كان حلاً لبنى إسرائيل إلا ما حرّم إسرائيلُ على نفسه » . فلَوْ لم يتطوع بتحريم لكان لهم كله حلالاً . وما تطوع إلا لحكمة مما علمه الله . وكان فى هذا كالردع لزندقة السائل إلى حين .

وسألت فتاة بالتلفون وتلك آبدة:«لماذا حرّم لحم الخنزير؟» حتى الفتيات أنشأن يفكرن فى الزندقة ياللويلات .

وقال لها لقد ذكر الله السبب «فإنه رجس» ـ سورة الأنعام ـ قال

تعالى : « فاجتنبوا الرجسَ من الأوثان واجتنبوا قول الزُور »
ـ الحج . وقد كان الخنزير مما يعبده الكافرون الأولون،أى كان
وثنا وكثير من الدندرمـــة التى بأوروبا من شحم الخنزير فيهـــا
نصيب واف . وكثير من أصناف البسكويت فيما بلغنى يدخلها
الخنزير شحمه لا لحمه،فإن تمسكت بحرفية النص فعسى أن تسلم .
هـــذا
وسار الحاكم العام إلى القرية التى فيها الشاعر،ينتظر شواء حنيذا،
ووراءه كانت عربة فيها سفرجية بالأحزمة والقفاطين والمربى المرمليد
والشوك والسكاكين .
وكان الشاعر جاءه وهو مهموم همًا روحيًا عميقا .
كان رئيسه المستر الإنجليزى دعاه ثم أخبره أنه وصله خبر سار
جدا . سار جداء وذلك أن زوجته ستضع توأمين ذكر وأنثى .
ووضع الشاعر الليمون أمامه مذهولا : « ستضعُ ماذا تقول ؟ »
ـ نعم ، جاءنى خبر بذلك
ـ ولكن
كان هو يعلم المستر العربية ولم يكن يعرف الإنجليزية .
ـ ولكن هذا من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله .
ـ هذا لا أعلمه ياشيخ فلان
كان المستر مدرس الفنون فيه اتجاه إلحادى عصرى ، رجلا سوى
ذلك فاضلا حسن العشرة .
ـ الذى أعلمه أن زوجتى ستضع توأمين والاطباء عندنا يعرفون
هذا . وانتظر الشاعر حتى لقيه المستر ذات يوم جذلان . وضعت
زوجته ذكرا وأنثى وسمّاهما .

وجاء الشاعر إليه وقص عليه قصة المستر وتوأميه وكيف ذلك ومفاتح الغيب • وقد كان ضميره حقا قلقا والشك قد هزه والتفاسير لم تعنه •

قال له : « الله يعلمُ ماتحملُ كلُ أنثى وماتغيض الأرحام وما تزداد» إن الله انفرد بالعلم المحض المطلق لايُنَقّب ولا يستطلع ــ هذا وجه ؛ كتعليم ربك الأسماء ؛ فعلمُ الله بها ليس كعلم آدم • وعلم الله مافى الأرحام ليس كوصول الطبيب إلى معرفة ما عسى أن يكون فيها ؛ ثم قد علم ربك منذ « ألست بربكم » أى رحم منهن مخصب وأى رحم منهن عقيم • فلا يَختَلَّن إيمانك من أجل هذا العارض • وسلاه وأفطرا وشربا شايا• وعجبت زوجه لم صار إليه ذلك الشاعر ليسأله دون علماء الدين وهو لم يك منهم• وعجبت وهى راضية عما عجبت منه مزهوة به مسرورة •

* * * * *

وقالت الشيخة ترثى ذا ثكلها

بطّرنى ومابيّنهرنى وفى قمرة سفّرنى

وهنا محل الشاهد

أى نعمنى فجعلنى ببره كأننى فى بطر ولم يكن ينهرنى وبلغ من إكرامه لى أنه كان يتحفنى بالسفر فى القمرة •

وأفندى بضبانة اصطلاح اصطلحه ولدا الحكيم لعمود التلغراف الذى يسنده طنب سلك واحد مشدود إلى وتد حديدى مغروس فى الأرض وبضباتتين أى بطنبين • والطنب بضمتين حبل الخيمة وجمعه أطناب قال أبو تمام :

حتى تركت عمود الشرك منعفرا ولم تعرج على الأوتاد والطنب

كأنهما شبها العمود الذى له طنبان بذبانة ، «ضبانه» أى ذبابة ، لها جناحان • ولم يشبها بعصفورة أو حمامة لكثرة الذبان آنئذ فى المنازل والذال تنقلب فى العامية ضادا • من ذلك قولهم الضباينة لقبيلة بشرق السودان أصلها لاشك من بنى ذبيان وإليها ينسب ولد زايد صاحب القدح المشهور • قيل كان ينحر الناقة •

كانت جدته تقول ذبحوا لنا اليوم جزرة • وكان ذوق الناس لم يفسد فكانوا يحبون الإبل •

وكان ولد زايد يأمر من يأمرهم أن يجعلوا لحم الناقة كله «شرموطا» و «الشرموط» هو القديد ، أكثر ما يصنع من لحم البقر • وخبر ولد زايد يدل على جواز عمله من لحم الإبل • ولحم البقر أطعم وأشد أسرا فتقديده يميت من أسره •

وينشف الشرموط بأن يقطع اللحم شرائح مستطيلة فيها سمك غير رهاف عراض ، وليس بسمك عظيم ، وتعرض من الظل للهواء حتف تجف فتجف ولا رائحة لها ولا أدنى تغيير ، وتبقى على ذلك الدهر الطويل ونزول المطر مما يفسدها •

ويدق الشرموط ويوضع منه قليل مع «الويكة» المدقوقة ويسمى هذا ملاح الشرموط •

واذا كثر دقيق الشرموط وخلط ببصل محمر فى السمن مدقوق وبويكة مدقوقة كان منه ملاح أحمر ثقيل الوزن عظيم الغذاء لذيذ الطعم يسمى ملاح التقلية •

والشرموط يُعَلَّق على حَبْلٍ ليجفّ ، وإن لم يدق ترك جافًا على الحبل هكذا ، وهو أصون له من أن يحفظ دقيقا . ولا خطر عليه إلا من القطط فإنها تحبه . وإذا وضع فى الماء الساخن ودُقّ أمكن عمل الكفتة (وقالوا إنها من أصل تركى وليست من الكفت بمعنى الأخذ والجمع) والمحشو (الذى يسمى المحشى ويجمع المحاشى) من الكوسة والبنضورة والباذنجان والفلفل الأخضر والمكرونة بولانجيز .

وأصل الشرموط من دون ريب من (شرط) زيدت الميم للدلالة على مايقع من تشريط اللحم وتشريره .

ولايعرف الشرموط فى غير السودان إلا بالتاء ويكون حينئذ علماً بالغلبة علم جنس على ضرب من النساء . ولا ريب أن أصل هذا الاستعمال من التشبيه كأنها لحم على وضم .

وبلغنى أن بنجد من يستعمل كلمة الشرموط استعمالها بالسودان وأنه بمصر قد يقال للخرقة البالية شرموط فهذا يقوى أن أصل الاشتقاق مادة (شرط) .

وإذا جعل لحم الناقة كله شرموطا ثم جعل مثلاح شرموط فهو مقدار كما ترى عظيم . أتظن أنه يبلغ ثلاثة أمتار مكعبة من الملاح (أى الإدام) ؟

وكل هذا كان يُصَبُّ مع الكسرة فى قدح واحد هو قدح ولد زائد . والكسرة بكسر الكاف خبز رهاف كأوراق السجائر إرهافا من الذرة المخمرة ويخبز على الصاج أو على « الدوكة » وهى كالصاج ولكن من الطين المحروق أو من « النهَمَتْر » وهو ضرب من الحجارة ، وكان هو المستعمل فى أرض الجعليين .

وكان الناس يصطفون حول قـدح ولد زائـد ، فوج يجىء بعده فوج ، كما قال الفرزدق

قعودا وخلف القاعدين صفوفهم قياماً وأيديهم جموس وثطف

ــ أفنـدى لـر

أى لا سلك له وأصلها لعله تركى

* * * * *

ورأوا قاطرة سوداء مقلوبة أو متكئة على جنب كأن مدخنتها كان يخرج منها دخان كما يخرج من بخار « كفتيرة » الشاى قبل أن يستحر غليانه أول ما يبدأ يشعرك بأنه يغلى .

وكان القطار متجها إلى درديب نحو هيا ــ تقاطع هيا . وكانـت جدته تقول « الحية » وتحسب أن البجاة يخطئون فى نطق لفظها العربى . والحاء من أعسر المخارج .

اللهم غفرا . لعل الجيم والقاف والثاء والذال والضاد هن أعسر مخارج لكثرة ما يخطىء فيهن الناس القارئون الكاتبون .

رحم الله الذى قال :

قد كبِر برِ بِبِر بِبِرْتْ وعقلى إلى ورا

هذا أجود من أصناف من الشعر الحديث

* * * * *

وكانت الدنيا ليلا دامسا وهم ينتظرون القطار . كانوا قادمين من بلدتهم إلى كسلا وهذه « هيا » التقاطع . هذا كان قبل زمـان « أفندى لر ... أفندى بضباتتين »

لنعم الفتى تعشو إلى ضوءِ ناره طريفُ بن مال ليلةَ البردِ والخَصَر

وبدا القطار كله أسود لولبيا . هـذا كان من تأثـير مرور العربات البيض بينهن الوصلات السود . هى وحدها بقيت منطبعة فى مخيلة فؤاده . وركبوا على أرائك خشبية عراض فى الدرجـة الرابعة . واستغرب استغرابا محضا . كأن استغرابه هذا كان سؤالا لم صير بهم إلى الدرجة الرابعة بعد الثانية ذات الخيزران والأنوار . وتأويل ذلك عساه كان هكذا :

عند التغيير « بهيا » لقوا جماعة من بنى بلدتهم وأقاربهـم فى الدرجة الرابعة قادمين من بورسودان . وقالوا لهم إن الرابعة أرحب ويد الله مع الجماعة وكرهوا لهم وحشة امتياز الدرجة الثانية . وهو يذكر بعد سواد الوصلات والصباح والشاى وبرتقـالا أو شريحة من برتقال أو برتقالة تقشر ، قدمها إليه منهم أصفر ظريف .

« ياظربف سف وتهنا كيفك بالدنيا »

هـذا كان مكتوبا على حقة السعوط (١) رآها فيما بعـد ، والحقة عليها خطوط كالتى على قفطان الشاهية .

ليكاد الآن يشم رائحة البرتكان ويرى لون فصوصه .

ورأى الظريف الأصفر قادماً من نحو السوق بجانب الصريف يده إلى ميزان دراجة « بسكليت » وهو يقود البسكليت فخورا به ، والبسكليت يلمع حديده . وزهو الظريف به آنئذ كان مثل الزهو الذى يراه الآن ، أو قد رآه يوما على وجه بعض الناجحين الذين ارتقوا بأخرة يقودون لِمُوزين وتِلِنفِزْيون وترنسستر وكأس ويسكى ويخطبون عن مستقبل مؤسسة وخطرها من الوجهتين الانسانية والقومية .

---

(١) هو التبغ يسحق فيجعل دقيقا يتسعطه اصحاب الكيف ويضعونه فى افواههم .

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مُغَلّب

ويذكر إشراق النور بفجاءة لما كانوا بالدرجة الثانية فى القمرة باهرا ويد جده إلى لحية خفيفة : عجايب يا فقرا ، ديل ال علّبِنّ مِنّو ؟ » أى من أوقد هذه المصابيح ؟ علّب كانت تستعمل آنئذ فى معنى أوقد ، علّبِن أى علبهن أى أوقدهن . والآن تقول علب تعليبا والتعليب من أبجديات الاقتصاد السياسى القومى فى البلدان المتخلفةالتى تريد أن تتصنع وهى بحمد الله كثير، وما كانت تحلم كلمة العلبة التى ذكرها جرير :

إذا نهض الكرام إلى المعالى نهضت بِعُلبَةٍ وأثرت نابا

يأن ينتج منها مثل هذا الاشتقاق .

عجايب يافقرا ولم يكن بالقمرة « فقرا » غيره

* * * * *

وقالت امرأة متشيطنة لصواحب لها وكن سائرات ورأين جماعة من « الفقرا » ثيابهم بيض عليهم العمائم وكأنهم ملتثمون : « سأغايظ لكن هؤلاء الفقراء وأريكن ضعفهم .. يافقرا هوى أفعل بيكم وأفعل بيكم . » وقالت كلاما قبيحا فأعرضوا ملتثمين يكادون يتقطرون خجلا . وقال أجرأهم : هوى ، غلنا لك زى ماغلتى لنا » يقلب القاف غينا مبالغة فى التفاصح .

وقال الثانى، وكانوا ثلاثة:وانا ياسيدنا كذلك وابان فتحة الكاف.

وقال الثالث : وأنا يا سيدنا أشد من ذلكً .

* * * * *

وطفق جده ينظر إلى المصابيح اللواتى « علبّن » علبهن سحر هؤلاء الترك (بضمتين أى الانجليز) المماسيخ .

ــ دحين كل ما ادور المحل دا يافقرا القى فيه زولا بيعاين لى واصـــــدّ .

(وكان إنما يرى شخصه فى المرآة .)

ددق ددق ددق

قال وقد ألقى عليه الدهر كلكلا وهو يفتل حبلا إلى جانب «المترة» (١) كنت أيام الشباب أركب حصانا إلى وادى أب سلم . وكان أخوه يدخر الحبوب حتى إنهم فتحوا مرة مطمورة قديمــة مــن مذخوراته فوجدوها سوّست . وأنقذ الناس من مجاعــة سنة ٦ وكان عنده السمن والتمر « السّكوْت » الغلاظ .

وهل حقا كان غنيا وله مال ؟

حملناه فى جراب على فمه شعير تُؤْنا بحمله فلا أدرى أين ذُهِب به ولقد حفروا كل مكان فكأنما طارت بالمال عنقاء مغــرب .

* * * * *

وذاكرته تتجاوز به عهد سطوع النور بفجاءة عليه وعلى جده معاً إلى أبيه يخطو عليه ثياب بيض ومخلاة فيها اللحم السمين جئ به من الداخلة (٢) وأمامه الآن أكواب الشاى ، كلّ الأكواب التى صُبَّتْ أكوابه ، وأهله منتظرو اختياره صابرين .

والحمــارة أم ذنيب وحلت فى الخور وهو يقدم رجــلا وفــزع فأخرهما إذ وحل فخاف الغرق

* * * * *

(١) ساقية الماء تكون على بئر لا على النيل نفسه .

(٢) الداخلة : اسم مدينة اتبرا لما كانت حلة صغيرة .

وغرق مرة وكان لايعرف العوم فملك نفسه وحبا من حيث كان إلى مكان كان ضحلا تذكّره وأعانه على ذلك معين فنجا •

* * * * *

وبينما هو ينظر سقط على عينه « كعكول » • وكان الناس اذ ذاك يجنون الصمغ ويقرظون القرظ ، وكانوا عربا •

العطـوى ال جـانــا دابـــه

بســـلل فى رُقـــابـــه

سنّك لبَنْ زولاً ظريـرف حلابه

يميلون الألف من «حلابه» جهة الواو فتوشك أن تكون «حلّوبه» بلام مشددة بعدها واو •

الاخضـــــر ماشفتـــنّه

تجعل الضاد من الأخضر دالا ولا تنطق الهمزة المفتوحة ولكـن تشدد اللام كأنك نقلت فتحة الهمزة إليها • وشفتنه بتشديد النون مضمومة أى رأيتن إياه (فصلنا الضمير ههنا للتوضيح)•والأخضر أى الشاب ذو اللون الضارب للسواد

العقـــــر مــــا بيـلدَتـه

بتشديد القـاف جمـع عـاقر أى العـاقرات لا يلـدن مثله

عشرين ريال من سرجه ما ُبد لتّنـــُه

أى إن رأى عشرين ريالا على الأرض فإن ذلك لا يستخفه فيجعله يتدلى من سرجه ليلتقطها ــ هذا من كبريائه • وكان الريال عظيما آنذاك والكعكول الصمغة المستديرة المجتمعة•ويحسبه سقط على عينه اليسرى

* * * * *

ورأى الوابور الذى كان يقــدم ليحمل بالات ــ لابل ــ شوالات القطن لترسل لتحلج وتجعل بالات •

ددق دق ددق دق

* * * * *

هنا أيضا بكادلى وشارع أكسفورد كما فى لندن ، والمبانى شديدة السواد ، ومما كان سيزوره المصنع الذى به يغزل قطــن السودان •

رآه يصب فى صبّابة فينهمر منه كالماء ، ويتطاير منه كالزبد، فأما الزبد فيذهب جفاءً ، ويستمر الذى كالماء المنهمر • قال الرجل الشديد المراس فى وجهه ، : « نعرف طول فتلة القطن هكذا • » وفرك من القطن بين أصابعه • وهذا نهير يجيئنا ــ (قال نهر بلا تصغير) ــ بالصنادل من ليفربول ، يجىء من القناة ، والفحم هناك، واشار إلى مكان منجم ،

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لاتلاقيا

هذه دروس الجغرافيا التى كانوا يلقوننا إياها فى المدرسة الأولية التى كانت تدعى الكتاب : منشستر وليفربول وتشتهران بتجارة القطن ، ليدز وبرادفورد وتشتهران بتجارة الصوف ، برمنجهــام وشفيلد ، الصلب والآلات القاطعة •

* * * * *

أنتم متأثرون بالتعليم الانجليزى لانكم كنتم مع الانجليز، كما يكون الخــدام مع مخدومه أو سيده • لم يخطر له قط أن يقول لأن الانجليز كانوا معكم أو حكاما عليكم أو مستعمريكم أو ما شئت مما لا يفيد معية الخدمة

* * * * *

وقد ضربه قرب عينه عود ناتىء من صريف وكانوا يجرون في حلة الحلنقة بكسلا .

* * * * *

قال عامل الحانة بأسنان في بعضها تفليل أو سواد ، متأسف ، لا نخدم السادة الملونين ، وانصرف السيد الملون إذ مباركون الضعفاء المتواضعون لأنهم سيرثون مملكة السماء ، « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . » يفزعه شيئا أن يكثر الاستشهاد بهذه الآية أن المصعب بن الزبير خطب بأول القصص ، وأشار يمثل أعداءه بهامان وفرعون وهلم جرا . وكان من أمره أن قتل بمسكن وقتل ابن الحواري أخوه بمكة ولا فزع . فقد كان ينبغي للمصعب حين تلا أول القصص ألا يحصر آيات الله العراض في الامثلة اللاتي مثلهن بها . وكان أخوه رضي الله عنه أخطب منه . وعن سعيد بن المسيب أنه قدم معاوية وابنه وسعيدا وابنه في الفصاحة وقال : ليس ابن الزبير بدونهم وكأنه ذكر أن لاماء لكلامه . وكانت في ابن الزبير شدة . والذي ينسب إليه من البخل أحسبه باطلا . والشواهد التي يستشهد بها نحو « إن وراكبها » (١) « أكلتم تمري وعصيتم أمري » أدخل في باب لذع اللسان منها في البخل ، وأحسب هذا ما عناه ابن المسيب حين تحدث عن فصاحته فذكر ماذكر .

وينسبون تضعضع أمره إلى البخل ، فإن جاز نحو هذا فلماذا لم يتضعضع ملك عبد الملك وذكروه بالبخل وجعلوه من باب التدبير

(١) قال له احد من كانوا يميلون الى بني امية وكان قدم عليه ليعطيه فلم يعطه : فلعن الله ناقة حملتني اليك فقال له ان اى نعم وراكبها وهذا يدل — مع اللذعه — على سعة صدر منه وماكان قائل هذا له ليجسر على قوله عند زياد مثلا

ومن أسباب نصره ، وبنحو ذلك ذكروا أبا جعفر المنصور • ولماذا لم ينجح المصعب وكان كريما ومهر ابنة طلـحة ألف ألف فقيـل بُضْعُ الفتاة بألف ألفٍ كاملٍ وتموتُ سادات الجـنود جياعا والناس مولعون بحسد الملوك •

* * * * *

وذُعِرَ من مرأى الوابور ومسمعه ذعرا طار منه بقدمى طفل حتى وقع فى شوك الزريبة فهو يزار به موسى العزب •

وها هو ذا قاعدا أمام شبح جدار يعصر ورم الوعى فيخـرج الشوك أسود كل شوكة لها ألم لذيذ ، متى شاء ذكره فخيل إليه أنه يحس به كله من جديد • كان من هذه الآلام واللذات الخالدة مدى العمر • وأشد ماتكون اللذة حين يخامرها كالألم أو الألم بلا كاف تشبيه • ولله درشيلى إذ يقول :

Our sweetest songs are those that tell of saddest thought.

ولولا زيارة موسى لقد كانت قدماه قطّنتا • فالشوكة فى باطن القدم قد تنبت نبتا ثم يصير نبتها قطنه والعياذ بالله• «لمسناالتقيلة» (١) أى التراب•وموسى العزب «راجل السبوت خرّاج النبُّوت» إذا زار ذو النبت ضريحه سبع مرات ، مرة كل سبت ، متواليات أخرج النبت والقطنة • وصيّرهما «وعى» أى مدة أو شيئا هيناه ويقال إنه إذا صار النبت فى الرجل قطنة فليس دون القطع علاج• والشوك إذا دخل العصب الحى لايصير قطنا ولكن يذيبه اللحـم والدم اللذان ظن زهير أنهما لايصنعان شيـئا فى قوله « فلـم يبق إلا صورة اللحم والدم » (٢)

---

(١) اذا ذكرت النساء واحيانا غيرهن مرضا منكرا لمسن الارض تعـــوذا وقلن لمسنا التقيلة .

(٢) صدر البيت قوله لسان الفتى نصف ونصف فؤاده.

والشوكة القديمة يجعلها بلاها شديد الضرر ، وتكون سامة لما يجتمع فيها من قذر . وشوك السنط والطلح كل ذلك غائل . وليس بدونهما شوك السدر الذى كأنه خناجر صغار .

وقول الآخر يصف قطعة ثوب نسجت له :

حوكت على نِيرَين إذ تحاك   تختبط الشوك ولاتشاك

فيه تزيده.أو يكون ناسجه قد سبق إلى صنع الذى يسمى «المشمع» من الأقمشة الخشنة المتينة . وفى الأعراب الأكاذيب . زعم أحدهم أنه علق قربة ماء على فرع شجرة فأكلته الأرضة وأكلتها وبقى الماء وحده معلقا فى الهواء شأنه شأن البيوت المزركشة المصنوعة من الما غرفات فوقهن غرفات ، فى كتاب دقائق الاخبار فى ذكر الجنة والنار .. ومن قرأه وهو صغير أدخل فى قلبه إخباتا عظيما . ومن قرأه وهو كبير فقد يعينه على تقديم رسالة للدكتوراة . وأكثرهن من هذا الضرب . وولى زمان « الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما » .

ويرى المعاصرون من علماء التربية ومعهم ابن خلدون أن التحفيظ يهلك ملكة التحليل . وأجود أن يقال إن التحفيظ بلا طريقة ذات فن وجمال وأدب قد يفعل ذلك .

وموسى العزب كما يخرج « النبت » يفل شوكة الكاذب إذا حلف عنده ، وفى ضريحه سيال طوال ، أعنى حرم ضريحه . ومن حلف عنده كاذبا نُكِبَ لايختلف فى ذلك اثنان . فلذلك يتنكب الناس أن يحلفوا عنده .

* * * * *

وبناحية أتبرا ولى صالح يقال له عبد المعروف له قبة ظاهرة

ذكروا أنه حلف عنده رجل كاذب فخرج من البنية خروفاً يقول باع باع .

واستجارت بعبد المعروف أمة أيام المهدية كرهت جور سيدها عليها أو أبقت كما يأبق العبيد . فجاء يناديها لتخرج من خارج البنية وهي لا تجيب وهو لا يجسر أن يقتحم عليها البنية من خوف أن ينكبه عبد المعروف غيرة على حرمه . وجاء بقارى (1) له حصان وحربة فوجده على تلك الحالة فسأله ، فعلم من أمره، فدخل فأخرج الأمة صاغرة داخرة . واشرأب الرجل ليشكر البقارى ويقود الأمة . فقال له البقارى إنك عجزت أن تأخذها من هذا الميت ، أفتطمع أن تأخذها منى أنا الحى . وكان البقارة آنئذ حكاما ، ومضى بها يستن . ولا شك أن الشيخ عبد المعروف قد أجارها من سيدها أمنع جوار وأكرمه ، نفعنا الله به وقدس سره.

وأب بشر أبو بشرية أغير صاحب ضريح .

قالوا إن الفكى أحمد ود جلال الدين زاره مع حوار له (أى تلميذ له) وكانت معه قطعتا نقود ، إحداهما جيدة كبيرة والأخرى دونها : ريال جديد وآخر ممسوح . وأعطى الفكى حواره الريالين وأمره أن يضع الجديد فوق تربة أب بشر ويحتفظ بالآخر . ووضع الحوار الريال المسهوك فوق التربة واحتفظ بالجديد ، ثم سار . وفى الطريق التفت الفكى (الفقيه) أحمد ود جلال الدين (ود أى ولد أى ابن) إلى الحوار وقال له أنت ما وضعت الريال الجديد فوق التربة . وأراد الحوار أن يضطرب ، فقال له الفكى أحمد

---

(1) بقارى ، رجل من قبيلة البقارة وهم رهط الخليفة عبدالله من عرب غرب السودان .

يثبته « جاءنى أب بشر نفسه وقال لى أخذت ريالى ورددت عليكم ريالكـم » ــ دحين اتبن ريالك .

اى انظر ريالك هل تجده . أتبن أى فتش وانظر أصلها ثبن باب ضرب . ونظر الحوار فوجد الريال المسهوك . لقد أخذ أب بشر رياله الجديد . ولعل الفكى أحمد كان نذر زيارة أب بشر .

وأكثر أهل الدامر يزورون أب بشر للزيانة ، وما كانــوا يتهاونون فى ذلك مع أن مكان أب بشر بعيد ، وراء فتوار ، غرب النيل ، قالت المادحــة :

ويا اب بشر ال ورافتوار

ولم تكن المواصلات إلا الحمير « سيروا فيها ليالى وأياما آمنين. »

والزيانة حلق الشعر . وكل قوم لهم شيخ يحلــقون عنده عقائق أطفالهم . يتركون من شعر الرأس شيئا يرمز إلى العقيقــة ويحلقونه عند الشيخ . الولد الصغير لا يحلق رأسه بالموسى ولكن يجز من أطرافه بالمقص ، وتترك قطعة مربعة فى مقدمتــه تسمى القـصة (بضم القاف) . أو تترك قطعة مربعة فى المقدمة وأخرى مستديرة فى مؤخرة الرأس فوق القذال. وهاتان تثبتان على الرأس لاتحلقان ولا يُقَصّ منهما بالمقص إلا يسير جدا . وتحلقان عند الشيخ ، شيخ الزيانة ، وهو أبداً ضريح .

وقد يترك للولد ذؤابة أو ذؤابان . وأكثر ما تترك الذؤابــة إذا مرض الولد ثم تُنذَر له أنه إذا شفى حلق من شعره عند الفكى فلان وذبح عتود نذرا للفكى فلان ، وهذا يكون غير شيخ الزيانة ، كأن الذؤابة تفردٌ عن باقى الشعر الذى هو نصيب شيخ الزيانة. والذؤابة التى يُتنذَر بها تسمى « قنبورا » ولا يكون للولد قنبور

بعد البلوغ إلا أن يكون لم يف بالنذر. وحينئذ يستمر معه القنبور إلى حين يتهيأ له الوفاء . وحينئذ يجهد هو فى تغطية ذؤابات رأسه لأن الذؤابة (القنبور) علامة الطفولة والكبير يخجل منه . ومن أجل هذا يقال للأحمق « الدلاهة أم قنبور » و « أم قنابير » . وفى نص هذا المثل مايدل على أن البنات أيضا تنذر منهن ذوائب. والغالب على البنات ألا يحلق من شعرهن أو يقص . وإنما يضفر ضفائر صفوفا . ثم يذهب بهن أهلهن إلى شيخ الزيانة فيحلقن شعرهن كله هناك . ثم ينمو شعرهن من جديد .

وكثيرا ما يؤخر الناس حلق البنت لبعد أب بشر ، ومشقة السفر إليه وشدة الهجيرة عنده . والبنت تسافر معها الأمهات والقرائب وفى حركة النساء بطء وثقل وأعباء .

وتمرض البنت ويموت جناها إذا زوجت ولم يحلق شعرها عند أب بشر . ولا يترك اب بشر حقه . فيضطر أهل البنت أن يذهبوا بها إليه وأن يحلقوا شعرها عنده .

وبعض أهل الدامر زيانتهم عند حسين ود حمد وهو من أركانها سرع النجدة للداعى رضى الله عنه ،

وشيخه هو عبد المقيت ــ (أو عبد المغيث وعلى هذا أصوب) . هاهم أولاء وسط الصحراء حولهم السلم والشوك وفوقهم الهجيرة. ولا يذكر أ أحضروا ماء معهم فى قربة أم أخذوا ماء من بئر فى الطريق . وكانت على رأسه دائرة شعر صغيرة حلقت عند عبد المغيث .

وكان سائره حُلِقَ من قبل ،فى نفس اليوم عند الشيخ المجذوب. وكان عجيبا عجيبا أن صير به من ذلك « المقام » ذى الرايات

والكسوة والأبهة والركائز والظل والعطر والبخور والسادنات العدد . هنا قناة قديمة وعصا قديمة كانتا رايتين وقبر بال . والحارسة العجوز جدا ثالثتهما . كان عجبه كما عجب حين صير بهم من الثانية إلى الرابعة فى قطار « هيا » أعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر .

وإنما كان شيخَهُ عبد المغيث وليس الشيخ المجذوب بشيخ زيانة . ولكن قد نذر أبوه أن يحلق هناك . شيء «كالقنبور» ولكن لا « قنبور » ولا عتود .

وعبد المغيث وعبدالمعبود بيّنهما الشيخ المجذوب (صاحب المناقب) فيما ذكروا . قولنا صاحب المناقب أى هى مناقبه ولكن دونها ابن أخيه الشيخ الطاهر .

ولعل عبد المغيث وعبد المعبود أقدم عهدا من اب بشر أبى بشرية، إذ هذا عند الناس من الصالحين ، وهما عندهم من السحابه بكسر السين أى الصحابة .

ولا تعجبن من هذا فقد ذكر بعضهم (أحسب أن المختار السوسى ذكر ذلك فى كتابه المعسول) أن أصل إسلام البربر بالمغرب من جماعة منهم صحابة وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ، فبايعوه وعهد إليهم بنشر الإسلام فيما دون البحر إلى الجبل والصحراء .

وفى البربر غيرة . وحرصهم على أن يكون منهم صحابة شاهد على قوة رابطتهم بالإسلام رابطة لقاء لصاحب الرسالة نفسه كما ترى .

وعند بعض الباحثين المعاصرين أن نحو عبد المعبود وعبد المغيث

ربما كانوا من آثار العنج (بفتحتين) الأولين. والعنج أهل السودان فى الدهر السالف ، فى عيونهم عمق وسعة ، وعظام وجناتهم كأنهن بوارز ومنهن جمال فتياتهم ، وشعورهم لينة ، وما خالطها من القساوة من الدم الزنجى ، وألوانهم شديدة السواد يضرب إلى الزرقة ، وسمرة قمحية ، وفيهن الصفرة ، وهم الذين سماهم هيرودوتس بالاثيوبيين طوال الأعمار .

ويقال إن كهنة أمون فر بعضهم من تجديد إخناتون وتوحيده فآواهم الدامر .

فعلى هذا يكونان من عهد كهنة أمون . ثم لما عمّت النصرانية العنج صار فى موضعهما قديسان . ولعل أحدهما الذى تبع النجمة عند مولد المسيح . ثم لما جاء الإسلام بيّن الشيوخ فى موضعهما صحابيين أو وليّين هما عبد المغيث وعبد المعبود . ويقال إن جارية سقطت فى بئرٍ فإذا بضوءٍ — أو وجه مضىء — ورجل يطعمها ويسقيها . ولما اهتدى أهلها إليها وجدوها بخير وقصت عليهم خبرها . فعلموا أنه ولى صالح من عهد الصحابة أو عهد قديم فبيّنوه ثم دثر ثم أبِينَ وهو عبد المعبود .

وكون عبد المغيث شيخ زيانة من شواهد قدمه .

ويقال إن الزيانة أصلها ضرب من القرْبان والضحية . وكان الناس فى أيام الشرك والوثنية الأولى يقربون الضحايا البشرية إلى الآلهة. من ذلك ما يذكر من أن أهل قرطاجنة كانوا يضحون الأطفال لملوْخ .

ثم جعلوا عذْرةَ العذارى مما يضحى به مكان النفس الآدمية. فصارت الفتيات مما يفتتضضن فى بيوت الأصنام. ولا ريب أن

دهورا سالفة كانت تذبحهن مبالغة فى تقريب العذرة . والوأد من هذا أو قريب من مذهبه .

واستبدل الشعر فجعل مكان العـُذرة . ومن أجل هذا ماكثيرا تجد الشعر يجعل رمزا للقوة . من ذلك خبر شمشون .

بل يبدو أن الشعر قد جعل مكان النفس أحيانا . مما يدل على ذلك أن قدماء المصريين فى دهرهم السحيق كانوا يضحون ذوى الشعور الحمر للقمح حين حصاده . فتكون تضحية الشعر نفسه حلـت مكان قتل صاحبه . وأحسب جز النواصى عند العرب إذا ظفروا بأسير وعفوا عنه أصله من هذا ، يجعلون شعره مكان رقبته .

وإن صح كل هذا الحدس فتكون مواضع الزيانة كأنها قد توورثت منذ عهد كوش والفراعنة . ثم لما جاء الإسلام تأتى دعـاته إلى تثبيته من طريق الاحتفاظ بمظهر العبادات القديمة ، بأن احتفظوا بضرائحها ومواضع معابدها . ثم حولوا كل ذلك إلى الاسلام أو ماينخرط فى العقيدة الاسلامية فتقبله .

والحلق من عبادات الساميين القديمة ولعل الفراعنة وكوشا والعنج أخذوه من أصل سامى . ولعل العنج من أصل عربى ثم خالطـوا بالنيل أصولا زنجية ونوبيـة .

ويروى عن السيد الحسن المرغنى رضى الله عنه ونفعنا به أن أرض شندى من امتداد الأرض المباركة التى كانت لثمود ، وهى أرض الله ، قال تعالى « فذروها تأكل فى أرض الله . » وعن ود الفكى على والفكى السيد ود الطاهر رحمهما الله أن الفصيل ، فصيل ثمود هرب إلى وادى الهواد وما حوله وتلك أرض العنج حيث يحتفر أهل الأحفار آثارهم .

وأنه ـ أى فصيل ثمود ـ سيبقى ما شاء الله ، حتى يتأذن الله بخروج دابة الأرض فيكون هو دابة الارض ، قال تعالى: «وإذا وقع عليهم القول أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم » • وقد يذكر أهل هذا الخبر أن البحر الاحمر لم يكن موجودا • أو حديثهم(١) هذا كان كناية عن يسر عبوره « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة »

وفى الطبرى أن الفصيل صعد القارة (أى الجبيل الصغير) فارتفعت به حتى صارت جبلا فمات بها •

وفى تاريخ هيرودوتس (الترجمة الانجليزية) أن عربا من الاراضى الواقعة جنوب مصر كانوا فى جيش كسرى بن دارا الاول فى الحرب الاغريقية الفارسية الثانية قبل زمان المسيح بقرون • وما الارض الواقعة جنوب مصر الا السودان •

وأحسب أن هجرة جعفر بن أبى طالب والصحابة رضوان الله عنهم انما كانت الى سواكن فأرض النيل • جاء فى السيرة ان سيدنا الزبير رضى الله عنه نفخ قربة وعبر بها النيل • هكذا فى السيرة • ولا أظن أن فى حبشة غندار وأكسوم نيلا يعبر بقربة منفوخة وانما هى مهاو ومدافع • وما أشبه أن يكون المعبور نيلنا الاتبراوى أو الأزرق أو العدلاناوى ، أى النيل الكبير • والله تعالى أعلم •

وبلغنى أن بشرق السودان اعتقادا شائعا بين الناس أن الزبير اجتاز ببلدهم وثم شجرة يقال انه ربط عندها جواده • وكان الزبير رضى الله عنه من فرسان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما لايخفى

* * * * *

هـذا

وموسى العزب ، إذ يُحلَف عنده معه أربعة من رهطه • اثنان أبوان واثنان كالابنين ، إذ هو لم يتزوج فيعقب • والنساء يقلن « الخمسة ال ما بيحملوا اللمسة » أى الخمسة الذين لا يحتملون أن يتهاون بقدرهم أحد ، فمن حلف عندهم كاذبا نكبوه •

ومواضع قبورهم وهى مصفوفة معا ، فيها كالدلالة على قرابتهم بالنسبة إلى موسى•موسى متقدم فى أقصى الجانب الغربى كموضع الإبهام من اليد • وأبوه وجده فى مواضع السبابة والوسطى على التوالى هكذا • وابن أخيه فى موضع الخنصر وحفيد أخ له آخر فى موضع البنصر •

والذى فى موضع الوسطى هو جده حمد بن عبد الله راجل درو بن محمد بن الحاج عيسى ود قنديل ود حمد ود عبد العال ود عرمان فيما ذكروا والله تعالى اعلم •

وحمد ود عبد الله يسمى ضمين الدامر • قيل ضمنها من الجن فلا يصيبون بها أحدا من بنيه ، ولا أحد من بنيه يصيب بها أحدا من الجن ، بأن يداوى ممرورا مثلا • وقيل ضمن شاطئها من التماسيح أن تخطف أحدا عنده والراجح أنه ضمين الدامر أى المدفون فيها، ضَمَّن جسدُه إياها • إذا أجداده مدفونون بدرو •

ودّرو جنوبى الدامر وهى الآن فى حيِّزه • وقالوا عبد الله راجل درو أى رجل لله دره فاختصروه ، وهذا من تخريجات الفقراء (١) كما ترى•وقال كروفورد فى كتابهعن الفونج إن «درّو»

(١) الفقراء أى العلماء الصالحون المفتقرون الى الله وفقراء الدامر علماؤها .

هى ملتقى أتبرا بالنيل وعنده أنها اسم الدامر القديم أو ناحيتهـا فيكون معنى « راجل درو » أى ولى الدامر وصالحها •

ومن أمثالهم :

يادر ّو جـاك خـير
جـاك موسى ود تمير

أى جاءك يادرو خير وهو موسى ولد تمير • قالوا لما مات موسى ولد تمير ، غرب الدامر ، ارادوا ليحملوا نعشه إلى مدافن بالغرب، ناحية « سميح » مثلا • فثقل النعش حتى كأنه جبل وأبى أن يرتفع على أيديهم • فلما أقبلوه الشرق ، جهة در ّو ، طارو عبر النيـل واستقر حيث مدافن درو الآن •

وزيارة عبد الله راجل در ّو يوم الأحد وهو مدفون فى مقبرة جده الحاج عيسى •

وفى مناقب الشيخ أن الدامر هو الدامر لفظا الثامر معنى • وفى قوله الثامر كالأشارة إلى تمير (كأنها تصغير تمر ولكن مكان اليـاء الساكنة بطح من إمالة) والتاء والثاء غير متباعدتين من حيث يسر صيرورة الثاء تاء •

وفى خبر الصالحة بنت أسد صاحبة المطمر ، انها حين تزوجها الفكى حمد ود الميدوب ، وكانت قد بلغت عمر سارة ، رأت النبى صلى الله عليه وسلم فأشار عليها بزيارة الفكى محـمد ود ثـمّـيْـر (ضـمّـير بامالة الياء) فى وادى قباتى بسبع دمجات • فذهبت اليه وزادت عليهن سبعا فقال لها لانأخذ إلاحقنا واحتلب لهاناقةفى قرعة وجلست على فروة له • وماهو الاقليل حتى قال لها : قومى ياالفقييره نجست الفروه • وذلك أنها قد جاءها الحيض • قالوا فقـالت

للفكى حمد من بعد وكان مشغولا عنها بالذكر كما هى كانت ذاكرة أيضا : تركنا السنة . فرزقهما الله منصورا وهو جد حاج حمد ود منصور أمير الدامر الذى قتل رميا بالرصاص أوائل الفتح الثانى .

والشاهد ثمير لقربها من تمير والتامر وليس المطمر من ذلك أيضا ببعيد .

وقالوا أصل الدامر من أن حمد ود عبدالله أقام به فقالوا حمد دامر أى أقام ، ينطقونها «دومر» بإمالة الألف نحو الواو كأنهم يجعلونه فتحةً بعدها واو ساكنة ، أو قريباً من ذلك لايبلغه . وإمالة الألف إلى الواو مروية عن العرب فى العصوْ ونهى ابن عباس عن كذا وكذا الحدَوْ ، أحسبه نهى عن رمى الحدأ . (جمع حِدْأة) وقالوا أصله من دامر الليل كله إذا أقامه عابدا وهذا كأنه من تخريجات الفقراء .

وما أشبه أن يكون أصل الدامر من الدميرة أى الفيضان. ذلك بأنه يصلها فيضان نهرين عظيمين : النيل والأتبراوى وهو ذو فيضان ضخم ، وقيل إنه وحده كان هو النيل الذى يصل مصر فى الدهر الأول الغابر جدا . وكان النيلان الأبيض والازرق محبوسين وراء خانق السبلوكة (وأصوب هكذا : السبلوقة) .

وزعم بعضهم أن أهل السودان الاقدمين نحتوا الصخر عند السبلوقة فجرى النيل الكبير — ومن أجل هذا قيل فى المثل : من سنة حفروا البحر ، فلو انهم لم يحفروه بأيديهم ما قالوا ذلك والله أعلم .

وإن يك كهنة أمون قد نزلوا بالدامر حقا ، فإنهم مما كانوا يصنعون

الفيضان بعد الفيضان • فيكون معنى الدامر على هذا ، صانع الفيضان ، أو مكان صنع الفيضان أو دار السقياء•وهذا ليس ببعيد من معنى المغيث فى عبد المغيث ولا من معنى المقيت لأن الميم مضمومة فى الحالين والقوت من الغيث • وليس ببعيد من معنى الشامر •

ولعل العنج الأولين كانوا يسمون الشيخين أو قل الهيكلين بالمعبود والمقيت أو المغيث جهلا منهم بأن الله هو الذى ينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام •

ولعل الدامر اسم عربى صريح نقله العرب إلى النيل منذ دهر قديم • والراجح أن أكثر هجرتهم إلى السودان إنما كان من طريق البحر الاحمر رأسا • وفى جزيرة العرب فيما بلغنى موضع يسمى الدامر قريب من دومة الجندل • ومن عجب أن الدامر الغربى الذى ذكره بركهاردت اسمه الدومة • فتأمل •

ويقال للحبال التى ترفع بها أخشاب الدوم « دمير »•والحبال من سعف الدوم كمالا يخفى•فالدوم والدمير مرتبطان كماترى والله أعلم•

وأبو موسى العزب ، الذى فى موضع السبابة هو على أب دامع (أبو دامع) ود (ابن) حمد ود عبد الله • سمى أبادامع لإدمانه البكاء عبادة وورعا • وكان له إخوة ثلاثة ، إبراهيم أبو الشضيفة القاضى جد القضاة • وعبد الرحمن أب شله وله عقب وقد يحلف به من غير ذهاب إلى بنيته وحامد أو محمود تيتا ، أصلها أحسبه تأتاء إلا أنهم يجعلون ياءَها كألف ممالة ، جد المحموداب أولاد تيتا •

وابناؤه ، أى أبودامع ، أربعة هم موسى العزب هذا وكان عزبا وعيسى جدا العسياب أى بنو عيسى وحمد وترك بنتا هى مشاهى،

ومحمد المجذوب • وينطقون الجيم ياء والذال دالا ويكادون يسكنون الميم الأولى من محمد ، وهو جد المجاذيب ، قيل قتل مع أحد الخارجين على الملك • وهو فى كتاب نعوم شقير محمود وهذا وهم • كما أنه فى كتاب بركها ردت المجدول ولا ريب هذا خطأ من الطابع إذ بى B وإل L تتشابهان فى خط اليد هكذا

وقد يكون مات بسنار والقتيل غيره • وعرف قبره بعض الصالحين بسنار عن طريق الكشف أو دلته عليه الحارسة •

وولد محمد المجذوب ثلاثة هم الفكى حمد ود الميدوب وأمه آمنة بنت اب راس الابراسابية وزار بروس الدامر فى زمانه أو نحو ذلك وأحمد ود الميدوب وعبد الماجد الضرير ود الميدوب• وأحمد وعبد الماجد الضرير شقيقان وهما أسن من أخيهما الفكى حمد وعبد الماجد الضرير أسنهما وأمهما فاطمة بنت حجر المحمدابية من حجراب (١) وهيب ، كانت تحت حمد ود على أب دامع وولدت له مشاهى • فمشاهى أختهما لأمهما • وتزوجها أخوهما لأبيهما الفكى حمد • فولدت له الفكى عبد الله النقر وأخاه محمدا راجل السفينة أم دير•(أى صاحب السفينة التى لها دير وهو الخشبة التى يجلس عليها الجالس فى السفينة تكون من طرف منها إلى طرف)

وعبد الماجد الضريرى « أب توباتا حريرى » هو الذى فى موضع الخنصر فى بنية موسى العزب ، القبر الثانى من الشرق ، وأقام غرب الدامر وبنى مسجدا آثاره ترى وله عقب باق بالدامر والأضية والفكى حمد ود الميدوب ذكره صاحب طبقات ولد

(١) اب : تفيد النسب ، الف طويلة وباء فلن قلت عثماناب كان معناه عثمانيين وحجراب اى بنو حجر وهلم جرا •

ضيف الله وقد شاهده وذكر ابنه الخليفة أحمد أبا جدرى ويستدل من هذا ان أبا جدرى خلف وأبوه حى ، وهكذا سياق القصة المروية .

وكان الفكى حمد عظيم الصلاح والبركة حج وأخذ الشاذلية على الشيخ على الدَّرَّاوى وكان طريق أبيه القادرية وكان يعرف باسم « طيب النية »

قالت بنت الطيب ، إحدى بنات الطيب ود الأمين ود الفكى حمد(١)، وأخوات أبى القاسم الريس الذى قتل بدارفور أو بحر الغزال (الراجح انه قتل بالفاشر) بعد مقتل سليمان بن الزبير رحمه الله وانتقم من قاتليه جسى وغوردون وإسمعيل أيوب والخديوى أجمعين وقد فعل . قالت : « ببركة طيب النية ، نحن ، المكابرابية ، ان شاالله مالنا فيها ذرية » دعت بذلك حين الطيب ولد ود أحمد ود الميدوب وابنه عثمان تزوجا كلاهما اختين من المكابراب .

والطيب ود محمد ود أحمد موضع البنصر فى بنية موسى والأول من الشرق . وخارج البنية جده أحمد

وأما الفكى حمد فمدفون وسط الجبانة الكبرى وقبره ظاهر وعنده حجر أملس .

وكان بصيرا بنجارة السواقى ، أعنى الفكى حمد . وكان ربما تفقد سواقى بنى عمه وكان بعضهم له خصما فأصلحها فيسألون عبيدهم فيقولون : « أصلحها طيب النية » يعنون الفكى حمد.

وكان فقراء الدامر يحرسون القوافل فلا يُعتَدى عليها . وفى زمن الفكى حمد كانت الحراسة كلها إليه . وكان ذهب ابن

---

(١) أم هى بنت الطيب ود الفكى حمد ؟ الله اعلم.

له صغير مع إحدى القوافل يحرسها باسمه وكانت له عُصَيّة بيده وعرض له كبير المكابراب (أى بنى مكابر) فى وادى المكابراب (أى وادى بنى مكابر) . أحسب كان اسمه « دنبيـل »

قالوا : وكان كبير المكابراب يمسح ساقه بالزيت ويمدها ، فإن مررت قريبا منه قال لك لقد ملأت ساقى بالغبار،أما ترانى مسحتها لألم فيها ؟ وساورك فقتلك ونهب ما عندك ؛ وكان له وجه من إفسادك زيت رجله بالغبار .

وإن مررت بعيدا عنه قال لك لم تبتعد عن ناحيتى كأنى مجذوم. وهب فساورك فقتلك ثم نهب ؛ وكان له وجه من إساءتك إليه بابتعادك عنه .

وكان فى القافلة خير كثير . وجاء دنبيل إلى الغلام فقال له :ـ

ـ ياود الفكى ، عماتك كتلِن الجِفّوف .

أى يابن الشيخ الفقيه إن عماتك يعنى نساءه هو (لأن مكابر جد المكابراب من أولاد عرمان كما عبد العال جد الفكى حمد من أولاد عرمان) قد قتلهن الجفاف من الدهن . كأنه يقول له نعلم أن لك ولأبيك حرمة ولكنا لا بد لنا من غارة ونهب . وضربه الغلام بالمُطْرَق (أى العُصَيّة) وقال له : يامطموس وعن سبب كهذا كان يبحث دنبيل . فلم يكذب أن اخترط سيفه فقطع به رقبة الغلام . وأشبه أن يكون اخترط سكينه وسكين السودان كالسيف ، إنما هى مغنول (1) ، وطعنه .

وكتف المكابراب كبيرهم وجاءوا به الفكى حمد فقالوا هذا كبيرنا فعل ما فعل وجئنا به لتقتله بابنك الذى قتله . وأمر به

(1) المغول : السيف الصغير ، وسكين السودان كالخنجر الرومانى .

الفكى حمد فأدخل داره . ثم أخرجه بعد قليل إليهم ، وقد حُلِقَ شعره ودُهِنَ وجعلت عليه ذريرة . وقال لهم الفكى حمد :

ـ هذا ولدى والذى قتله ولدى فما كنت لأثكل أثنين فى يوم واحد وعن ذلك مندوحة

وكان المكابراب قد جاءوا جلدين على العداوة فرجعوا وقلوبهم ندم مضٌ . وأمنت القافلة منذ ذلك اليوم أمانا كاملا لم تر مثله قبله . فقول بنت الطيب « بركة طيب النية نحن المكابرابية ان شا الله مالنا فيها ذرية » من هذا .

هذا ولايخفى أن قصة دنبيل من الأساطير ونحن نستبعدها لقرابة المكابراب بالفكى حمد ورحمهم الماسة . إلا أن الأساطير تروى على حالتها بلا تغيير كما هو معروف من مذهب الأدباء والعلماء ثم لهذه الأسطورة قيمة عظيمة لدلالتها على العلاقة القوية بين الفكى حمد والمكابراب حتى إنهم لو قد قتلوا ابنه لم يؤثر ذلك عليه ثم هى بعد تدل على عزة المكابراب وسطوتهم وفضلهم وحديث بنت الطيب كأنما هو رد أسطورى على أسطورة دنبيل كما ترى . هذا وقد ركبت بنت الطيب هذه إلى بحر الغزال فأحضرت يتيمه أخيها أبى القاسم . وكن قد خرجن مأتما كبيرا من بحر الغزال متنكرات فى زى الرجال ، حتى إذا جئن أرض العرب البقارة اتسبن . وكانت على رأسهن امرأة تدعى بنت إدريس . فأشعلن الأرض بالبكاء على سليمان وصحبه . وكان ذلك مما مهد لنجاح المهدية ونصرها .

وكان للفكى حمد سبعةعشر ابنا ذكرا وبنتان رقية وحليمةوالى رقية ينتسب أربعة رقية ويقال قتلوا بالكُوَيْنب وقبورهم ظاهرقبالدامر

تزار . والكويب مقرن أتبرا بالنيل وهو غير بعيد جدا من حيث دفنوا وقد يكونون ارتثوا فأحتملوا إلى الدامر فماتوا ثَم . وقد يكونون ماتوا بالكويب أو دونها ثم احتملوا ليدفنوا فى جبانة آبائهم . وكانت رقية بنت الفكى حمد عند الفكى عبد الله ود عيسى ود على اب دامع أخو الميدوب الكبير جد العيسياب وله عقب صالح منهم آل الفكى ود عبد السلام بكنور . واختها حليمة بنت الفكى حمد كانت عند الفكى عبد الوهاب تزوجها بمهر عظيم وهو جد الوهاهيب .

وابناء الفكى حمد هم الطيب والطاهر وقمر الدين والأمين وهؤلاء أشقاء والقرشى والتهامى والمدنى وعلى الصادق والأزرق وامهم بنت سَوَ يْنكِت وأحمد أب جدرى (ابو جدرى) وشقيقه الأحمر وأمهما أبراسابية . أبوراس جدها الأكبر ابن الحاج عيسى ود قنديل . ومنصور(١) والمكى (٢) ومصطفى وليسوا بأشقاء . والفكى عبد الله النقر وهو أكبرهم وأخوه محمد راجل السفينة ام دير . وقيل سمى محمد راجل السفينة أم دير لأن أباه بعثه فى أمر رقبة أو خصومة (أى ذلك كان الله أعلم به) وركبوا مركبا . وكان صغيرا فتهامس القوم : لو لم يتهاون بنا الفكى حمد مابعث معنا الصبى؟ فقال لهم : لست بصبى فقد شهدت سفينة نوح . نفعنا الله بجاهه . ومات صغيرا .

ومن لا يُعْتَبَطْ يهرم ويسأم وتسلمه المنون إلى انقطاع

والطيب ود الفكى حمد من عقبه الطيب « راجل العلا مه» بتشديد اللام صاحب الراية أيام المهدية .

* * * * *

(١) منصور امه بنت اسد ، عمرابية . (٢) وام المكى « نية ».

ولو كان جده عبد الرحمن ود الطيب ولد ود أحمد تحت راية شيخ العلا-مة هذا لكان نجا من رصاص أبى طليح ٠

ــ عــوك ، روحة ناس ابوى وعبد الرحمن اخوى

هكذا قال جده عبد الله ٠ أى كما هلك أبى وعبد الرحمن أخى

وكان عبد الرحمن شقيقه وكان حافظا ٠ أما هو فقد كان أمياً ٠ وانما كان يحفظ يس ويقرأ بها العدد ٠ وكان أمنع من كليب وأحمى من مجير الظُّعن

وكانت إليه سدانة صلاة العيدين وكانت تقام تحت سيالة داره ولايجتاز بحماها من أمامها مجتاز وخلف صفوفها قوم آخرون لايصلون يضرحون عنها بالحجارة والدُّراب يبتغون بذلك عندالله الثواب ٠ وكان بنو ود أحمد فرسان عبادة وأهل سقاية ورفــادة هــــذا

والطاهــر بن الفكى حمــد له عقــب بنــات ٠ وقمــر الدين أخذ الشاذليه عن أبيه وأخذها عنه ابنه الشيخ محمد المجذوب وأمه من حضور المتمة ٠ ولقى السيد محمد عثمان الختم والسيد أحمد ابن إدريس وجاور بالمدينة تسع سنين وأخذ عن الشيخ الأزرق ابن أحمد أبى جدرى جد الأزارقة بالقضارف،وكان فقيها مقتدراه وأخذعن الشيخ ابراهيم السويدى بالمدينة،أخذ عنه الطريق الشاذلى٠ واجتهد فى الطريق الشاذلى فألف موالد اتبع فيها نهج البرزنجى ونظم قصائد فى المدح والتوسل ٠ وبين منهجه ومنهج السيد محمد عثمان وأضرابه ، رضى الله عنهم ونفعنا بجاههم اجمعين ، تشابه مشعــر بمباراة أو مجاراة ٠ وفى أسلوب الشيخ محمد المجــذوب حلاوة

وإسماح فى عاميه وفصيحه ومايمزج فيه بينهما • وكان مذهب الشوق والوجدان يغلب عليه • قال رحمه الله :

لقد طال شـوقى ياأمينى لطيبة أشخصها طورا وطورا أناظر
تذكرت ياخِلّى ليالى مبيتنا بمسجدها والقوم باك وذاكر
تذكرت ترداديأخى بين رَوْضَةٍ وبَيْنِ دِكاكِ الزيت وهي أواخر
وإن لها نوراً إلى العرش ساطعا تشاهده أبصارنا والبصائر

وقـال رحمه الله :

أراك حزينا منك فاضت مدامع أمن نسمة هبت أم النور لامع
ومالك مهما ان تذكرت جـيرة بشعب بنى سعد جفتك المضاجع

ومن ديوان الشيخ المجذوب تعلم العربية وقرأه وهو أيما صغير وكان يلذه منه إنشاد المربعات العشر

أياذا القبـة الخضـرا	ويـاذا الروضـة النضـرا
ويا مـن قبره عطـرْ	أنـل مجذوبـكم وصـلا
أياذا البضـعة الزهـرا	ويـاذا الحـُلـة الحمـرا
ويا من مدحـه نقـرو	بكتـب الله مُذْ نـزلا
أيـا يس يـا طـه	أيا حـم يـا حـاهـا
لنـا فى حبكـم ولـه	فأسـقوا ماءكـم علـلا
مديح المصطفى شـغلى	وشـغل أبى كـذا أهـلى
ولى فيه نعـم أمـل	إذا مـا خافـت الفضَـلا
متى فى طيـبة نركـع	وفى روضـاتها نرتـع
ويحوينـا بهـا سـلع	وأحد فوقـه نعـلا

* * * * *

ولكن أولاد دنقلة كانوا يجتمعون كل ليلة خميس وأحد ويقرأون المولد العثمانى ولا يعطونه فرصة ويترنمون ، والأخرى نونا لأنها نصف دائرة الأكوان ، وعنقه جيد دمية فى صفاء الفضة بَيَضَان

صلوات الله ما هبّت صبا لرسول حلّ فى وادى قبا

قلع الباب وأردى مرحبا

ويا ألله يا ألله

تفله يشفى جميعا يا فلا

* * * * *

فى لجة أمسك فلاناً عن فلِ

تبقلت من أول التبقل بين رماحى مالك ونهشل

* * * * *

ولماذا لا أقرأ أنا مولدنا معهم ، أفتتح الإنشاء بحمد من الله العظيم اليه ، معترفا بالعجز قائلا لا أحصى ثناء عليه ، إذ ولّد بعجائب قدرته الباهرة ، إنسانا عين المخلوقات الباطنة والظاهرة ... والآن إذ ذكرنا سيرة المحبوب ، فلنرفع أكف الاحتياج لمالك خزائن الغيوب

صلينا مشتاقين لسيد الكونين

صلينا مشتاقين لقرة العينين

يا ثقيل يا شافع (١)

وذهب التلميذ الرباطابى يوم الجمعة الى السفرة (غرفة السفرة ،

---

(١) اى يا صغير لان الصغير اذا مات شفع لوالديه .

المائدة) فوجد أولاد دنقلا يأكلون فسيخا فولى هربا ــ فندى فندى اولاد دنقلة يياكلوا لن فى رمه

يكاد يميل قبل الهاء كما يفعل الكسائى فى رَحْمَة ، بل يكاد يخترم الميم قبل أن يصل الهاء ويشمها شيئا بين كسر وشد : فى رم

* * * * *

ــ فسيخ يا ولاد الكلب

قالها لما جاءه إشعار الجمرك مع صفيحة فارغة . فتحنا هذه الصفيحة ووجدنا محتوياتها سمكا منتنا قد فسد بعد التحليل الدقيق ومرسلة لكم الصفيحة أفيدوا الاستلام جمرك جلالة الملك .

ــ فسيخ يا ولاد الكلب

لقيه فى أستترا ميدان التحرير بعد دهر وزوجة شابة أوربية معه

وإذا وذلك لامهاه لذكره والدهر يعقب صالحا بفساد

* * * * *

وكان أول لقائه له بأكسفورد بعد ليلة سافر ثلثها الأخير البارد ثم دلف إلى حيث ربة المنزل التى كان سينزل عندها فلم يجد ترحيبا كلا . عنوان خطأ . ربما كنتَ لصا . وعاد أدراجه يستعين بالشرطى واجتهد بلا جدوى وعاد إلى أريكة خشبية بالمحطة يشاركه فيها آخر، كلما همّ بنومة أصطدما

ــ متأسف جدا

ــ متأسف جدا

ولقبل ساعات كان فى الدفء .

ونصف الليل جاء الفراش . ميعاد قطارك .

وآخر عهده بها يوم ينهمر المطر ساخنا فى منتصف الصيف ثم أخلف وعدها مرتين « وما أخلفنا مَوْعدك بِملْكِنا ولكنَّا حملنا أوزارا من زينةِ القومِ فقذفناها »

وماكان أغناه عن ميعاد القطار ومغادرة الدفء إلى مركبة كل أسبوع تقصد قرية بالريف البارد نائية والحديث الباهت عن المطامح الوطنية والاستعمار حديثا ذا مجاملة متكلفة من جانبه وجانب مضيفه أما ربة الدار فكانت أعنى بألا يأكل الزوج وضيفهما أكثر مما ينبغى .

* * * * *

— نحن لا نتحدث عن السجون فى منزلنا

وريعت المسكينة الساذجة من جفاف لهجتها . ولقد كان رآها فى أهلها مع الخس والشرائح والشاى، وما كانت هذه النحيلة المتصنعة لتساوى وزن خردلة فى نظر أمها ذات الشكيمة والسطوة .

— نحن هنا على الطبيعة. تنزل الصباح وتصنع لنفسك الإفطار. ونزل وصنع لنفسه ثلاث بيضات فى زمن التموين

— مامى مستر .... أكل ثلاث بيضات

كانت تلبس أبدا بنطلونا وتتكلم بفم موصد وتحاسبهم بأجر زائد تضيفه على ثمن الغرف إذا زيروا . ولكل كوب شاى ثمن . وتوقد النار لماء الحمام مرة واحدة كل أسبوع فيتسابق إليه صانعو خزانات المستقبل ومدبرو سياسة إفريقية. وإذا استزيدت يوما آخر توقد فيه للحمام — إذ كان ماتسخنه له ذلك اليوم الواحد لا يكفى — قالت : فى بلاد التبت يستحمون مرة واحدة فى العام .

وشكا أحدهم البرد الزمهرير • وكانت خرجت لتحتطب • وكان
تجمد الماء قد خرق المواسير أو جعلها تنفجر •
وكان يحمد للقطار الكهربائى المحلى دفئه
دق دق دق دق دق دق

* * * * *

The rainbow comes and goes
And lovely is the rose

وكانت إذ جلست للانترفيو متوردة من لفح الريح كالوردة•وكانت
كأن وجنتيها تأتلقان بوردة مطلولة • وكان لها ثغر انثى • وجعلت
وجهها صارما للأنترفيو • وتخنَّت من صوتها وهى لفَّاء •
وقالوا لها ههنا فندق صغير
فقالت أريد لآمن مع الحريم

* * * * *

وكانت قد صففت شعرها تصفيفة جد إلى أعلى ولبست بذلـة
مقابلة وقالت سأذهب إلى نوتنجهام للانترفيو
وفيها غابة شيروود وربين هود

* * * * *

وأنا سأكون الأول وكان الثانى على طوله وكبر سنه
فندى فندى أولاد دنقلة •• وشكا أنه يحال بينه وبين قراءة مولده
ومديحة • وجاء ضابط الداخلية التى تؤمن بحرية الأديان

ردّف السـلام للنبى الإمـام

وانتقد له ضابط الداخلية :
أنام به واستيقظنْ بحبه ويعرفه قلبى ولبى والطرف

ولم لا يكون هذا فعل أمر مؤكد فيه التفات من التكلم إلى الخطاب

* * * * *

ـ عوك روحة ناس ابوى وعبد الرحمن أخوى

وكان السيد الحسن «ابجلابيةنور» نزل فى داره • صار إليه بعد إقامة عند ابن عمته الفكى أحمد ود جلال الدين على الأرجح •

وقد ولد فى الديوان الذى به نزل السيد الحسن

وقد حمله السيد أحمد بن السيد محمد عثمان بن السيد الحسن رضى الله عنهم • توفى أحمد أفندى والسيد أحمد فى يوم واحد فورد ، تاكسى • لاريب • هل له تندة • العشر والدوم (١)

وهذا كأنه ليلة الخميس ، وهذه حلة الختمية •

* * * * *

ـ توت توت توت

وقف الامريكانى ينظر إلى جناح الطائرة والزيت ـ أو هو بنزين ـ ينبثق جدولا من ثقب الجناح •

صفر ليدل على عدم الاكتراث وليطمئن الراكبين • وقد ركبت امرأة خاساوية أو نحو ذلك ذات ثوب فضفاض ، لو خشيت أن الطائرة ستحترق لملأت الدنيا عجيجا •

وإنما نبهته «تسفاية» بعد أن نبهها «تسفاى» إلى انبثاق زيت الجناح

---

(١) ضربان من الشجر .

« تسفاية » يا حليلا (١)
قط مابنشوف متيلا (٢)
متين نلقاها الرّيله
والسفرة معاها عديلة

وهبطت « الداكوتة » فى مطار «تسنى» وليس بمطار ولكن طريق مبين من تراب . كانت جدته تقول «سَهَنَىٰ» . وفى كسلا الدوم . وهذه جبال ليس أحدها جبلى كسلا . لشد ما يأمل أن يراهما

خليليَّ هبَّا طالما قدْ رقدتما أجِدَّ كما لاتقضيان كَراكما
ألم تعلما مالى براوَنْد كلها ولابخذاق من صديق سواكما
أصب على قبريكما من مدامة فإن لم تنالاها ترَوَّ جثاكما

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انتسب : آلشاعر ، يشير إلى خبر سامة بن لؤى

عَيْنِ بكىِّ لسامةَ بن لؤَىّ علِقَتْ ساق سامةَ العلاقة
رُبَّ كأسٍ هرَقتَ يابنَ لؤىٍّ حَذَرَ الموتِ لم تكُن مهراقه

قال التيجانى يوسف بشير

قطرات من الندى رقراقه يصفق البشر دونها والطلاقة
والعجز ضعيف غامض . وقال عدى بن ربيعة المهلهل

ما أرجّى فى العيش بعد ندامى جميعا سقوا بكأس حلاق
أى المنية

ضربت صدرها الىّ قالت يا عديًا لقد وقتك الأواقى

---

(١) كلمة حليل سودانيــة كانها فى اصلهــا يا احيلى لها فى او نسبــة الى حليل الذى اضاع مفاتيح الكعبة ، والله اعلم .
(٢) متيلا : مثيلهما .

ـ عندنا الكوليرا والطاعون والجدرى ولكن ليس عنـدنا الحمى الصـفراء

ـ لا ، لانعطى البيرة للمسلمين فى ليالى رمضان

ـ وكيف عرفتنا مسلمين

ـ أعرفكم من وجوهـكم

« والخيل والحمير والبغال لتركبوها » •

والإبل الضخام والجواميس والمعزى السود والسروايل التى تتموج مثل أزر الهندوس

ـ كلـوا

وكلما أحضر الطعام ـ وكان شيخا يحرس المصحة ـ قال كلـوا ومد أصبعه إلى اللحم والى الزبد وإلى الخضر

وحضر اللحم

وحضر العجم

والعجم نظر

والعجم لمس

والعجم وضع اليد ولمس

لمس اللحـم

والعرب أكل

والعرب « طرش »

والأحرار من شيوخ العربية وأفنديتها قالوا كتاب المستر سكوت طريقته جميلة

أين امرؤ القيس والعذارى إذ مال من تحته الغبيط
له كميتان بنت كرم تزبد والسابح الربيط
استعجم العرب فى الموامى بعدك واستعرب النبيط

« ومكر اولئك هو يبور »

* * * * *

قالت له هلا اتخذت لنفسك فتاة وقد كرهت شكوه البرد،وانكسر الصحن فحز كزازة ذوقها المتنطس : « هذا لم يكن لـه لزوم » وابتسمت بخد ذابل وأسنان ثعبان ٠

كان أكثر ما يلقاه فى قطار العودة ٠ هل تفهم هذا ؟ قالها ملاطفة بعد طول ما التقيا فى الدروس وقرأ أوراقهما عن بنات شرلمان اللائى كن يعشن فى انحلال شديد ٠ شد ما دهش عندما ناقشه فى ثاءات لا نجلاند وياءات شوسير

« إن سومر سيزون هُوِن هوت واز ذو سونا » تباسمت إليه الفتاة الفرَعاء وقالت يقولون إنك تتقن غوامض هذا النحو المتوسط وما كانت قد تحدثت إليه من قبل ولا البولندية واضطرب عن أن يجيب ؛ كيف يجيب ؟ هذا لم يكن فى الحسبان ، « وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعِل باشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب » كان كاضطرابه إذ قدم الفانوس السحرى فطلِب منه وهو صغير قصير أن يبين أسماء بعض الصور ٠ هذا أذكى تلميذ

عندنا ... وخرج ونظر فلم ير شيئا وذكر القصة التى يدخل فيها الولد جحرا فيجد فانوسا سحريا

ـ دا الجحـر

كسفة ! لقد خيب أمل أستاذه كما خيـب أملها وكان آخـر حديث ...

ـ دق دق دق ددق

ـ الكفر جاتهـم من الصعايد
بطلوس عسـاكره مالن عدايد
كتلوه جابـوا ال كلب اب قنايد (١)

أسد الله البيضرع ـ ينهر فى المجمع ـ كم عوقا فى سراع .
من شوفتـه اتفرزع

* * * * *

وليس كأولاد الماحى حين ينقرون طارهم من مادح ولا كمديـح حاج الماحى من مديح
لم تر عينى مثل يوم دنقله

ـ دحين ضنقل دا ماهو عبد البطلوس .
ـ شبشوبن نُهّد جايات على المشهاد
أى شابات ناهدات ، كرر الشين والباء لإظهـار معنى الشـباب
ـ دارة وجوهن على القمر تنزاد

---

(١) أى قـلايد .

ما ضفرن نســعة   وما مَشّطن بيهمّاد
سابلات شعورن   واكفالهــن قعـــاد

هذا فى وصف الحور العين وتطرب له النساء

وقد جاءوا للتسجيل فى الإذاعة فلم يأبه لهم أصحابها إذ قد ذهبت الأصالة فى المديح وغيره

* * * * *

وكان ناظر المدرسة يعرف الشيخ المجذوب ويزوره وإن جهل مولده هؤلاء . هذا وأسقطه لوريمار من الشجرة التى صنعها فى كلمته عن المجاذيب فى مجلة « الســودان نى وقائع ومدونــات » Sudan Notes and Records قال إنهم سحرة «آلسحر إن الله سيبطله » ــ وبطل لوريمار وإنما كتب بجهل حرصا منه على أن يكون مفتش مركز قد كتب .

والعجب له كيف غفل عن أظهر بنية بالدامر فلم يهتد ، وهــو الحاكم ، إلى من يكون صاحبها والناس كلهم تعرفه ولو قد سأل لدلوه .

وسماه ترمنجهام محمد الصغير ؛ خلط أمرين ، ظن أنه محمد أبو صرة ، فخلع عليه لونا من خلافة محمد أبى صره بن أحمـد أبى جدرى بن الفكى حمد ، وأراد أن يميزه من محمد المجـذوب الجَد ؛ وكأن من تلقى عنه قال له الصغير والكبير ليميز بينهما . وتوفى بالدامر وبها قبره ، وهدمت قبة قبره فيما هدمه كتشنر من القبب ؛ وقيل كان الشيخ يكره أن يدفن فى قبة

وقد هدمت قبة المهدى بأمدرمان لإضعاف الروح المعنوية كما زعموا . وقد هدمت قبة السيد الحسن من قبل .

وعين توتيل رواء .

* * * * *

ويقول بعضهم أبوكرام فى جبل مكرام . ويسكنه المرعفيب . وأهل الصعيد يقولون « المرفعين » . وأهل كسلا يقولون : «الكراى» . فهل جبل مكرام أصله « أبوكرايم » جمعت « كراى » بالكسرة والميم وهما أختا الياء والنون فى الجمع . يقول العبرانيون كروبيم وصرفيم ولو كانتا عربيتين لكانتا كروبين وصرفين وهما ضربان من الملائكة المقربين الشرفاء .

وتكروف بئر وليست بعين عندها العرب يمتحون

راعه جفافها الكالح بعد خضرة الفدادين واللعب فى العراء «بـُدـَنان قـِيل » ــ ضرب من الجنادب أو الحناظب الطيـّارة ؛ ثخين الجناح، الكبير منه أحمر الجناح ثخينه قويه ، إنما هو مادة قرنية صلبة . والضرب الصغير منه أخضر الجناح فيه خطوط صفر . كانوا يقشرون فصوص قصب الذرة الناشفة ويصنعون منها حلقات ، ويقدون هذه الحناطب بالشوك ، يلصقونها به إلى القصب المقشور . ثم يجيئون بأعواد مشتعلة ، فيدنونها منها ، فتطير زن زن زن .

وفى أوروبا يفعلون نحو ذلك بالحديـد فيطـير زن زن زن زن ولعله يتألم ولا يشعرون بألمه كما كان هؤلاء لا يشعرون بألم الحناظب

ولا تقل إن الحديد جماد لا يتألم، ففى الأخبار أن الحجر حين يلقى فى جهنم فيبلغ قاعها ويلذعه حرّها يصرخ بصوت مسموع . «يأيها الذين ءامنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة»

عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » صدق الله العظيم •

وبعض النبات يتألم ويبدو عليه • وفى الأمزون فيما يزعم شجر يفترس الناس • وسيدة أمريكية لها أزهار تطعمها الذباب ، تمر عليها كل يوم بصندوق لها فيه زنابير حبائس ، فتلقى ت كل كم زهرة زنبورا فينطبق عليه ويمتصه • والسيدة الرقيقة بذلك لاهية ، وتجلس للغداء إلى لحم ثور أضجع وحُزّ ودجاه • يفعل هذا المسلمون • أما اولئك فيضربون رأس الثور بساطور أو يطعنون دماغه بإشفى من الكهرباء •

* * * * *

ـ الله يا سيد

ـ سيد سيودة   الله يا سيد

ـ ياب عاشه قودا   الله يا سيد

وبيدهم الحبل يجرون المركب عكس التيار • وأبو عائشة ينجدهم بصلاحه الغمر كما قد أنجد أهل تكروف إلى الجبال إلى سواكن نفسها

للنبى سالتّينا   للنبى سالتّينا

للنبى سالتّينا   الرسول هبتّينا

أصل السين صاد « صلينا » ولاتظهر سكون الياء ولكن تميل فتحة اللام

خلى بالك ليّا

لم أمين عليّا (لم فعل أمر من لم بالتشديد)

لينـا فيـك أمنيـة
بلغـــه الأمنيـه

وأمين هذا تلميذه وسمى به حفيده أمين بن أبى بكر وأمين أبن أبى بكر ، من الهدندوة الأخيار ، هو ابن عائشة بنت الشيخ المجذوب

* * * * *

وكان مجذوب بن أبى بكر مـع الفرقـة التى وصفها تشرشـل حين التقت خيل كتشنر برجال عثمان دقنه ، «خيل اللات بخيل الله» وشهد جديدا مع الخليفة . وبها استشهد رضى الله عنه
وليس للشيخ المجذوب فى سوى عائشة عقب .

* * * * *

ومن أبناء قمر الدين بن الفكى حمد ، الطيب وله الشيخ ود الشيخ الطيب الشاعر ، مدح المهدى بكلمة منها

طـالع السعد قد بـدا والكمـال

وله ديوان قيل عند المكابراب . وإلى وزن قصيدة منه فيما ذكروا نظر الشيخ ود الشيخ الطاهر فى كلمته :

ضوء برق تلالا — فى الدياجى خلالا
نحو نجد توالى — واعتلى واسـتطالا

ولما تصدح بها الأصوات الجهيرات فيما بين الدامر والفريـع .
والشيخ الطاهر المجذوب بن الفكى الطيب بن قمر الدين ، ابن أخى الشيخ المجذوب ، وهو مؤلف المناقب وشيخ عثمان دقنـه وذكره نعوم شقير تلميحا ؛ ونسب اليه هولت غير قليل من قيام

ثورة المهدية بالبحر الأحمر . وعسى أن ثار عثمان وبنو دقنه فآثر الشيخ الطاهر الحفاظ وغادر الدور والقصور بسواكن إلى جهاد يوم عبوس قمطرير بهندوب وأخواتها

أذكرت حيّ سعاد والعمتارا   وطفقت تندب بعدها الآثارا

* * * * *

والأمين بن الفكى حمد له ذرية عامرة ونسب واشج مع سعداب شندي . وكانت حال ابنائه بعده أشبه بحال الملوك.وكان الصديق ابن الأمين صاحب تدبير . غادر الدامر لما يئس من بنى عمومته إذ لم يقبلوا نصحه وصمموا على مصادمة الأتراك .

قال لهم الصديق وقد كان ذهب إلى بربر وعلم أن الملك نصر الدين قد سالم الأتراك : هولاء القوم عندهم السلاح النارى ، فإن كان لديكم سر تمسكون به النار وإلاّ فالمسلملة .

وكان فى القوم رجل من المحيسياب فتهكم وقال : « أهذا كلام شبانكم يا أبناء المجذوب ؟ » ... « أها يا ولاد الميدوب ، دَا تَراهُ كلام صُبْنيانكم .. »

فأثار حفيظة القوم وضرب النحاس . وكان الخليفة الفكى محمد أب صرة ود الفكى أحمد أب جدرى ود الفكى حمد ود الميدوب وجاء « الأناقيب » على الجمال . « الانقيب » المغنى كأنها من النقيب أو النجيب أو التلقيب أى صاحب التقليب الذى يطلق بشعره. على الناس الألقاب . يقولون اسم « انقيب » أى لقب.وهاج له الفكى جلال الدين فيما ذكروا وكان بيده السيف والسبحة مكان الدرقة ، والطيب ولد ود احمد وكان بيده البيرق .

ـ اتــو اولاد بيرق

* * * * *

وكان الطيب ولد ود أحمد يركب فى بنيه الأربعة فخشى العين فصار يركب مع ولده محمد وحده . وكانت فرسه تدعى « ام دَيَّة » أى ذات الصوت ذى الدوى . وكانت أمه وام أختيه فاطمة بنت ود أحمد وكلثوم بنت ود أحمد ، جبارابية . قالوا وما أغبته المسوح ليلة واحدة حتى أدرك فنشأ قوى البنية . وكان لا أخ ذكراً له . وكان أبوه الفقيه محمد ود أحمد ود الميدوب فريدا لا أخ ولا أخت . وكان رجلا فذا . وكانت أمه فيما ذكروا من المحس ، بنت كذا أغا من دنقلة . وكانت حلة الدناقلة والعبابدة جنوبى بيوتهم . وبها كان نزل بركهاردت . والفكى الكبير الذى رآه هو جلال الدين بدليل أن اسم أبيه عبد الله ، أى عبد الله النقر ، وقص القصة المعروفة : أن امرأة افتقدت عَبُورها فذهبت إليه وشكت واتهمت أحد الناس فجىء به إليه فأنكر هذا فقال الفكى للمرأة ، هل لعبورك اسم تعرف به ؟ فقالت نعم . فقال لها ناديها . فنادتها فصاحت « باع » من بطن الرجل لأنه ذبحها وأكلها . أو كان خائفا جدا ــ كما قال بركهاردت المنكر الدقيق الملاحظة ــ فقال « باع » من شدة الخوف.وفى هذا بعض التأويل لما مرّ بك آنفا من كرامة الشيخ عبد المعروف « ال قلب الزول خروف » الزول الإنسان باللغة العامية وأصله الإنسان الخفيف الظريف كما تقول جنتلمان

قطعته بفتيةٍ أزوال على مهارى رُجّف الإيغال

وأفسده الحكام الإنجليز فقالوا «زاول» بمد الزاى وسكون الواو

يريدون مدلولا كمدلول «نايتف» وقد أفسدوا من قبل «جنتلمان» حتى صارت «جنت» و «جنتس» وتكتب على المرافق العامة . وكان مانهايم يهوديا قصيرا يحاضر عن نظرية « الجنتلمان » ، وأصل ذلك في الارستقراطية والفروسية . وفيه نظر إلى ارسطوطاليس وكان الفكي الطيب ولد ود أحمد أصر على أن يسمع بكاء بناته له وهو حي . فركبن الخيل وانكسرت القبائل .

ورأى حفيدُ ابنَيْه أخرى بناته عجوزا يجاء بها من ناحية القاش بكسلا . وله جأش وهدير واشجار وغثاء وركام . والنساء عند شاطئه يجمعن « الشاف » و « الكليت » و « القنقليس »

وما الفرات إذا جاشت غواربُه ترمي أواذيُّه العِبْرَين بالزبد
يوما بأجود منه سيب نافلةٍ ولا يحول عطاء اليوم دون غد

وكان ذلك الحفيد على كتف رجل يعبر به القاش خوضا . وبعض الناس على عناقريب (سرر) يحملها رجال يعبرون بهم القاش ونفرت نفسه من ذلك . كأن أهله نفروا من ذلك وتحدثوا فهو يذكر ما كان من من نفورهم . كأن العناقريب جنائز .

وأحد العناقريب العنقريب وهو سرير خفيف من خشب منسوج بالحبال من سعف الدوم(١) ويقال للدب الأكبر من نجوم السماء العنقريب ونبئت أن هذا اللفظ عينه عند أهل سقطره . وهم شعب سامي الأصل . (ولا أرتاب أن لغة مروى القديمة من أصل سامي يمني السنخ وانه أعلم .) وخلف العنقريب أخواته

---

(١) ومن السيور ويقال له عنقريب القد وكان للعرس .

يبكين كأنه جنازة ويقال لهن « بنات نِعاش » أى بنات نعش ، قال أبو الطيب :

كأن بنات نعش فى دجاها خرائد سافرات فى حداد

وفى المثل « بنات نِعاش شيلن نعاش ختّتن نعاش فوق النعاش » وهو مما يُحاجى به الأطفال مثل «وقبر حرب بمكان قفر » . وأخرى « بنات نعاش » هى الجدى ويقال لها العريجاء كأنها عرجاء تحاول إدراك صويحياتها فلا تستطيع

أرأيت من حملوا على الأعواد أشهدت كيف خبا ضياء النادى
جبل هوى لو خرّ فى البحر اغتدى من وقعه متتابع الإزبـاد

— هاى ياود الميدوب انت بتركب كدى

وكان محمد ود الطيب ولد ود أحمد قد شكا من أن البقارة أخذوا فرسه وأمته وكان صحب المهدى من الغرب

— هاى نديك عشر نسوان

— مانى منافق يا سيدى خليفة المهدى . داير خادمى وحدها . وغمزه الناس . وكانت نشوة الخليفة لركوبه أكبر من أن يفطن لانفعاله ورَدّ له ما أخذ منه ، وأسر بالنجومية وعرفه الزبير

— الشيخ بكتل بكتل بكتل

أى يقتل يقتل

هذا صوت النحاس ويسمى أيضا « الدنقر » بكسر الدال . لفظ اشتقاقه صوتى الأصل . أونامابتيك . كلمة نادرة فى عجمتها وهى الآن على لسان كل نابت .

— نادى شيخنا الباك

ابوى صمد الدنقر الرطان

يا منادى ناد   نادى شيخنا اليوم

أبوك يا الحاج   جندى جندى القوم   يامنادى

ـ أنا المرابط أنا المجاهـد

* * * * *

وأجمع الفقرا على مصادمة الترك من دون سر يمسك النار . هذا كان قبل إحراق الملك نمر إسمعيل ابن الباشا بشندى على الأرجح وإلا ما كان الصديق ليأمن حين صار إلى قوز الفونج وماكان ليأمن أيضا الذين بقوا بالدامر من اولاد المجذوب ومن بنى عمهم . وقالوا إن ام إسمعيل غضبت حتى لم يرضها إلا ذبح الجعليين بيديها وشردوا وبيعوا ونكلوا كل تنكيل . وقد فطن هولت إلى أن فظاعة إنتقام الدفتر دار كانت مما أوغر الصدور على الترك وهولت أدق فهما وأعمق نظرا فى هذا الموضع من كثير غيره، والراجح أن حرق اسمعيل لم يكن بتدبير من الملك نمر . وفى مذكرات بركهاردت مشعر بذلك وقالوا إن المنشتح والمساعد وليا تدبير ذلك . ولعل من بطانة إسمعيل وكان مترفا متغطرسا من شاركهما أو يسر لهما الأمر . قالوا طلب اسمعيل جوارى . وجاءت فتاة من بنات الملك نمر لها رحط (أى إزار سيور) فقال اسمعيل « مثل هذى » . ولعل هذا الخبر تقريب وتمثيل لغطرسة إسمعيل

دون عَلَيّان خرط القتاد

وأرسل الدفتر دار لكل قبيلة أن تعطى الجعليين ضحوة قتال إذ هم منكسرون فارون مع الملك نمر .

* * * * *

ووبخته أخته فيما ذكروا : أتريد أن تفر كما فر نمر
وغنى « الانقيب » يدعوه إلى الحكمة :

« ياب عَدُو-ا فى الهوبجي واب نجدة نَى الريف »
ـ مرقو اولاد جعل ال كلهم كنز-ام
وين عريس الدنقـر الرز-ام

* * * * *

ووقف الشبان صفا طويلا واحتزموا وكشفوا أعلى أجسـامهم ليأخذوا السـوط

ـ ضرب السوط ما هو حار
هى كدى جربوا الشوتال
ـ الله يلعنك ، شوفوا الفتنة دى

* * * * *

وتخوف الملك نمر لقاء قبيلة كانوا أهل نشّاب فأبطأ

سار بنا القبّاع سيراً مَلَسـا
بـين دبيرى ود باها خمسـا
سـار بنا القباع سيرا نكـرا
بـين دباهـا ود بيرى عشـرا

وكان الحاج عبد الرحمن ود الفكى أحمد أب جدرى وأخـو الخليفة محمد أب صرة على الساقة وكان فارسا :

ـ يا أرباب (قالها يخاطب الملك نمر)
ـ دحين بيمشينا دا بنبّيت شندى

لكأن ود الفكى قد اتهمه بالجبن والفرار . وتذامر القوم وسحقوا

تلك القبيلة حتى صاروا إلى بلد الحبش وجاء أمان محوبك • وما كان الحاج عبد الرحمن الكليب ليكون معهم وليبلى بلاءه العظيم فى معركة الكويب •

ـ انتو ولاد بيرق

وكان بيرق صاحب اللواء فى هذه المعركة • والحاج عبد الرحمن الكليب قائدها وبطلها ، وشهدها الفكى جلال الدين بيمناه سيف وبيسراه سبحة ، «يُسَبِّحُ لله ما فى السموات وما فى الأرض المَلِكِ القُدُّوسِ العزيزِ الحكيم» نعم الترس والحرز الحريز • وشهدها الفكى قمر الدين أبو الشيخ ، من أبناء الفكى حمد وبها قتل واستشهد أربعة رقية كما تقدم • وأعيا الأتراك أن يعبروا الأتبراوى فانحازوا إلى الغرب • وأتبعهم الفقرا فعبروا • نسوا نصيحة الصديق وسر النار • وقتل أبونا محمد ود أحمد ودالميدوب فى « تاقب » حيث التقوا • وأكلت « الجُلّة » مأكلها

ـ سدوا الشرمة ياصبيان

وتساقط بنو عرمان •

وقال ود البقوق الكبير للفكى جلال الدين « نَقَرْنا يا ود نَقَرْنا سمحة الجلسة فى دامرنا »

وكانت المعركة الثالثة بقوز الحلق ولعل هذه كانت بعد حرق ود الباشا وأمر الدفتردار • ومات الخليفة محمد أب صرة رحمة الله عليه بعد هذه المعركة •

---

(١) الجلة : بضم الجيم هى قذيفة المدفع •

وابلغ الشيخ المجذوب وهو بالمدينة مقتل أبيه وأهله فأسى عليهم ودعا على الأتراك

* * * * *

وكان الشيخ حسيب ود الصديق ود الأمين ود الفكى حمد ود الميدوب يدرس الفقه والعربية ويلبس العمامة الخضراء وأخذ المهدى عنه النحو

ـ انتو أشراف ؟ ـ « هكذا سأله الناس لما راوا احتفاء المهدى به وبصحبه »

ـ أشراف .. أشراف .. الشرف شرف العلم

ـ هاى ، المهدى ماعندها (1) شيخ

وسأله أهل الدامر عن المهدى

ـ بحر لا يدرك غـوره

وعن الخليفـة

ـ الموت بين شفتيـه

وكان الخليفة قد اهتم واغتم لما أصر القوم عليه أن يعاهدهم بالأيمان الغلاظ على المصحف فى البنية فوق رأس المهدى فاحتاج الى الفقهاء

ـ هاى احفر ليعلمك لاهنا وادفنا (2)

والناس بالناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وان لم يشعروا خدم وأفتـوا لـه

ـ يا سيدى خليفة المهدى احلف وانو الحبر والورق ، قـول وحاة الكتـاب دا

---

(1) و (2) هذه لهجة البقارة يقولون عنده بفتح الدال وسكون الهاء وادفنه بفتح النون وسكون الهاء فتبدو وكانها مؤنثة وليست كذلك .

ـ عشرة ئى تربة ولا ريال فى طلبة

وأمر الامين بن أحمد بن الأمين بن الفكى حمد عبيده أن يضربوا النحاس « مهدية مهدية » • واجتمع إليه عبد الله ودسعد وعلى ود سعد وسائر الجعليين

ـ سمعنا وعصينا

واخترط سيفه ليقتحم «النَّقَيْنقَر» فأصابه الرصاص وغفل عنه لوريمار فأسقطه من شجرته وأبَه له هولت • وأبوه وجده بنيا المسجد الذى وصفه بركهاردت وكان يأوى إلى برد ظله من حر القيلولة أيام ألمّ بالدامر •

ـ بحمد الله أكبر ذو الجلال

نغمة قريبة شيئا ما من نغمة : « أرانى ما ذكرت لك الفراقا » والحاء فيها نفس من الهاء • وله نبرة أعجمية بكسرة لام الروى ومابعدها من إطلاق «الجلالى» وله لحية • وأنشدوا معه لكثرة ما اعتادوا الانشاد

دق دق دق دق ددق دق

كان ضابط صف من فرقة هندية مسلمة جىء بها مع جيش الهند لتقاتل من أجل قضية الحلفاء وتنتزع كرن من الطليان وترد هيلا سلاسى على الحبشة

وكانت الفرقة معسكرة بدرو ، وربما زاروا الجزيرة

ـ حرّم ياجماعة « رفيق » تتغدوا معاى • يابت الخروف الأبرق • وكان الهنود المسلمون يقولون فى النداء «رفيق» مكان ياهذا وياصاح • وكان عبد الرحمن الامين رحمه الله يذبح لزمرهم كلما رآها ويذبح لكل زمرة يراها فى جزيرته •

وكان جماعة من الوجهاء قد اكلوا دمعة الكمونية وشربوا الشاى ونهضوا شاكرين وقد شبعوا . فأخبرهم أن الخروف كله مازال على الطاجن يشوى والكمونية إنما هى البطن وأشياء من التوافه . واعتذروا بالشبع

ــ حرم تنزلو تعوموا

وكانت ملابسهم أوجه من أن يعوموا ؛ فمضوا حتى غابوا عن نظره وأتعبهم السير ثم عادوا فأكلوا الخروف .

ولمصطفى بن الفكى حمد عقب نساء . وللمكى عقب . وغفل لوريمار عن أبناء منصور ومنهم كان الشهيد حاج حمد ود أحمد ودمنصور الذى خلف الأمين بن أحمد فى أمارة الدامر وقتل رميا بالرصاص أول فتوح الحكم الثنائى لولائه المهدية وقالت الناس: « البلد بلدنا وحاج حمد ولدنا » رحمهما الله رحمة واسعة .

وأبناء الفكى أحمد أب جدرى كثير . منهم الأزرق أبو الأزارقة بالقضارف ، ومنهم محمد أب صرة وحفدته بالدامر كالخليفة السهيلى وبكسلا . ومات أخوه الأحمر « بكساب » ولعلما دعاه إلى « كساب » سابق عهد جده الميدوب بسنار .

وللقرشى والمدنى عقب بنات وليس لعلى عقب

وللتهامى والصادق والأزرق عقب صالح

وحمد المأمون صاحب المكتبة التى رآها بركهاردت من أبناء الأمين

وأرسلوا رجلا صيتا بليل يمر بدورهم ويصيح

ــ خلتفوا أحمد أب جدرى

وكان أخوه عبد الله النقر فيما ذكروا أسن منه .

وقيل إنهم قدموا أحمد أب جدرى لسعة صدره وأنه « سيمسك الناس » وقيل كان عيدالله النقر إذا غضب على شيء أثر فيه فى الحال ومن ذلك قبل إن خشبة عتبة الباب أصابت جانب رأسه فنظر إليها مغضبا فاحترق جانبها الذى لامسه.فذلك عليها إلى الآن ظاهر فيما يذكرون .

وحمى له إذ تجووز عمه وخاله أحمد ــ خاله من مشاهى بنت حمد ود على إذ كان أخاها من أمها فاطمة بنت حجر ، وعمه من الفكى حمد إذ هو أخوه من أبيه المجذوب .

ومع أحمد شقيقه عبد الماجد الضريرى

وحفظ على الفكى الحسين ود عبد الماجد ود أحمد حفيد عبدالماجد الضريرى « أب تابوتاً حريرى » خلق كثيرون وقارب التسعين أو أربى عليها وكان لما كان بالدامر الغربى قرأ عليه أبوه ثم صار إلى خلوة (ود الفكى على) حيث تلقى التجويد من (ود راوى) من فقراء الصعيد . وأوقدوا النار وبلغ ذلك الفكى حمد فأرسل قوما فألقوا عليها ترابا فارتفعت فأبلغوه ذلك فقال إن ناره لن تنطفىء

خالى الذى غصب الملوك نفوسهم   وإليه كان حباءُ جَفنَتَةِ يُنتَقَل

وإنما قيل للفكى حمد « أبو الست عشر » تبركا

وابناؤه كما ترى سبعة عشر من الذكور وتسعة عشر إن عددنا رقية وحليمة .

ويجوز أن يكون سبب قولهم «أبوالست عشر» انهم أهملوا البنتين وأهملوا محمدا راجل السفينة لصغره

ويقال حينئذ فلم لم يهملوا المقتول وقد كان صغيرا ؟
وهذا يرجح ماقدمنا من أمر التبرك
وسبب التبرك أن الست عشرة فى الأعداد دليل الخصب ، إذ كان النيل يجعلونه شيخا ذا لحية وبطن وحوله ستة عشر طفلا يكنون بها عن ستة عشر ذراعا إذا زاد فيضان النيل عليها أفسد وإن نقص لم يك ريا . ولم يلقب الفكى حمد بالنيل ولكن كأنه لقب بقولهم أبو الست عشر ولكن العركيين بالجزيرة قد لقبوا أحد صالحيهم (حمد النيل)
وحمد اختصار محمد ومحمد معدن البركة عند المسلمين والنيل معدن البركة عند النوبة والعنج والفراعنة الاقدمين

من أى عهدٍ فى القرى تتدفق   وبأى كفٍ فى المدائن تغدق

ـ لالوبـة يا اللالوبـه
يا ال منك باب التوبـه
بتى المنـور كيسـها
بتى الخضـر جليسـها
بتى الميدوب عريسـها

أم لعلهـا « المحجوب » فقد سمعها بكسـلا

* * * * *

ودعاه إلى مطعم وكان قلقا ينتظر تلفونا من اسكتلندا وقال له إنى خاطب أو على طريق خطوبة انتظر تلفونا من فتاتى هناك ، لابد أنها تجربة لكم مخاطبة البنات السافرات المتحررات لأول مرة . من أجل الحسنات (for goodness sake) لاتخجلوا

---

(١) يقلبون الضاد دالا مكسورة .

أن تتحدثوا إليهن ولكن من أجل الحسنات تجنبوا العلاقات العاطفية.
متعبة جدا . أما تراني أنتظر تلفونا من اسكتلندا
قصيرة جدا صاحبة البنطلون طويلة الشعر قصيرة العنق مستديرة الوجه صغيرته منهدلة الشفة السفلى دقيقتها ذكية النظرات لها نوينات ، متشيطنة غضيرة وثيرة البنطلون جدا . لا عيب . قه قه قه قه.سأمسح صدرك – تعرف،أنا جربته .الفكس دا انفعحاجه بكسر الفاء وأصلها بثلاث نقط VICK دهان للزكام وذكروا ان الزكام يقطع عرق الجذام .

– وأحلى من النكبا وأزكى من الكبا

لقد كان المغاربة يجيئون إلى هذا المسجد من الدهر القديم .وقد افتن بعض الناس فى «المحاية» فصارت تكتب بالعسل على الصينى. ... آمين آمين ... تم العدد ألف يس . وختموا الختمة وقال الشيخ الطيب ود عبد الله ود الطيب ولد ود أحمد اللهم تقرأ كتابك ونجوده ونكون فى هذا البؤس

– لا ياشيخ الطيب لا ياشيخ الطيب . قول استغفر الله
والتفت الشيخ الطيب إلى زميله البلخى بضم الباء وفتح اللام وقال له

– أنت بائس مثلى يا بلخى،ماأحسن لك تبقى فى جانبى وتعاونى عليه أى ليدعوا الله لماذا لا يغدق علينا الخير كما قد أغدق على الجهلاء

أتُراني دُونَ الألى بلغوا الأمـ ـل من سُوقةٍ ومن كتّاب
نَعَمٌ ألبستهمو نِعَمُ الـ ـظلال الغصونِ منها الرطاب
إذ تلك الغصون تصبح عندى ظالماتٍ فهل لها منها من متاب

* * * * *

وتجادلوا أشد جدال . عظيمة الانفعال

واول ما قاد المودة بيننــــا بوادى عقيق يابثين سبــاب

وقالت لنــا قولا فجئنا بمثله لكل كلام يابُثَيْنَ جــواب

* * * * *

وما كان ينظر من نافذة القطار إلا لشعور عميق بالوحدة والوحشة ..... مسكين عباس محمــود العقاد .. قال بصوت خشــن لقد جلدت كتابك بالجلاد الأفرنجى هذا هو...ولم يكتف بنسخة واحــدة

وتلك الوجنة الخمرية السكران رائيــها

أفى الجنــة يا رضــوان تفاح يحاكيهــا

وتلك القامــة الهيفــاء زانتهــا زواياها

إذا ما جار ردفاهــا أقام الجور نهداها

وجدتها وجدتها

وهل لفتاة زوايا ، هذه لفظة خشنة ، من الفكر مباشرة يريــد العقاد ليشغلنا بها عن أنه نظر وارتعدت فرائص وجدانه البشرى الذى تضغط عليه كبرياء الفكر ؛ الفكر الذى يحسب الفن شيئا أكبر من البشرية ... على من جار ردفاها أفى الجنة يارضــوان تفاح يحاكيها . موعدنا الجنة ياتفاح نحن الزاهدون بكبرياء الزهد على هذه الأرض الغبراء

ومسمعة يحار السمع فيها ولم تصممه لا يصمم صداها

مرت أوتارها فشفت وشاقت

ولو يستطيع حاسـدها فداهــا

فما خلت الخدودَ كسبن شوقا لقلبي مثلمـا كسبت يداهـا
ولم أفهم معانيهـا ولـكن ورت كبدى فلهم أجهل شجاها

لماذا تردد ابن رشيق فى تقديم أبى تمام على ابن الرومى فى باب الغوص على المعانى • أرأيت كما ههنا خشونة جد فى إعمال حد الفكر • بعض الخشونة كأسنان المنشار ولها صوت ••• مسكين العقاد • وبعضها كحد السيف القاطع الذى عنه المنتأى غير واسـع

أعاذلتى ما أخشن الليل مركبا وأخشن منه فى الملمات راكبه

خرجت عائشة بنت طلحة وابو هريرة بالمسجد ، سبحان الله : كأنما خرجت من الجنة

وكان أحد الفقرا درويشا فكلما أخبروه أن فلانة زوجوها قـال البنت الصفتها وصفتها فقالوا نعم

ــ الله ! دى البت ال كنا خاتين ايدنا عليها

قالوا ورمت الثريا الجمرات بخاتم وعاتبها رجل صالح فأنشـدت لابن أبى ربيعـة

من اللاى لم يحججن يبغين حسبة ولكن ليـَقتـُلن َالبـَرِ ىء َالمـُغفـلا

فدعا لها ألا يعذبها الله•وكان ينظر إلى الفتاة ذات العينين الرمادتين وكانت محتشمة غاية فى الأدب غاضة طرْفٍ ألـوانِ الملابس وزوايا العقـاد

ثم اذا هى مدبرة تعدو كأن القميص الكاسى أقمشة تمثال لتبيين الحركة • ومر به ذو لحية فحياه وكان قليلا ما يحيى • وإذا حييتم بتحية • يتعاقبون عليكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ••• «بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق

كل شيء وهو بكل شيء عليم . » فرد التحية وردت تحيته ابتسامة التى ثابت واقفة ابتسامة شاكرة له أنه لم يرم نيوبيد بسهم ..وما أعذب عينيها الرماديتين

ولم أفهم معانيها ولكن
مسألة أسهلها صعب
لا الناس تدريها ولا الكتب
حسبك منها لو شفت حسب
إشـــارة دق لهـــا القلب
بثنيتـى هـذا هـــو الحب
فهمتــه ـ كلا ـ ولا عتب

شر من سهم نيوبيد سهم كيوبيد

والعقاد رحمه الله شاعر.وفى شعره خشونة منشؤها من أسباب عدة أولها التجديد . نظر فى أصناف الشعر الانجليزى فراعتــه وسىء من غرور شوقى فجعل يتحداه بنوع من تقليده لأن شوقيا كان مجددا وكان شوقى يجدد ليضيف إلى العربية من فنون الفرنسية كما آل إسماعيل أرادوا أن يضيفوا إلى بهاء الدولة الإسلامية طابعا أوروبيا: دار الأبيرا والتوسع فى المال والاعمال واكتشاف منابع النيل بأعداء العرب والإسلام والنيل..تجار العاج بأعالى النيل والتبشير بجوبا وصموئيل بيكر وأمين باشا وغــوردون وجيسى ... وأطاع ف الزبير دعايات لندن وباريس والعنصرية والصليبية جميعا وتغنى شوقى بخوفو وخفرع بأوزان «وتوالت بشرى الهواتف أن قد».. وهيهات أن يقاس نفسه بنفس البارودى.وقلده العقادوصحبه

يأخذ من الانجليز كما أخذ عن الفرنسيس . وجد العقاد فى النظر إلى الشعراء الميتافيز يقيين أيما جد وإلى غير قليل من سوناتات شكسبير

Shall I wasting in despair
Die because a woman is fair

وقال العقـــاد :

أيذوى الصبا منا لأن منعمـا   من الناس بسام الثغير غريـر

الله أكبر . قال أخو مخزوم :

وأعجبها من عيشها ظلّ غُرفَةٍ   وريّان ملتفُّ الحدائق أخضر

ووال كفاهـا كل شيءٍ يهمّها   فليست لشيءٍ آخر الليل تسهر

وقال العقـاد

كأننى تاجر بالشط مرتقبٌ   مَوجَ الخضِم وفلكى فيه غرقان

انطونيو .. أنا انطونيو وانطونيو أنـا ..

مالى ، دوقيانى .... تاجر البندقيـة

So long as men can read and eyes can see
So long live this and this gives life to thee

بقيـة لك أتلوهـا وأنشدها   هذى القصائد لى فيهن سلوان

قال جرير :

ستهدم حـائطى قرمـاء منى   قوافٍ ما أريـد بها عتابـا

دخلن قصور يثرب معلمـات   ولم يتركن من صـنعاء بابـا

وقال حبيب .

خذها ابنة الفكر المهذب فى الدجى   والليل أسود رقعة الجلباب

بكرا تورث فى الحياة وتغتدى   فى السلم وهى كثيرة الأسلوب

ويزيدهـا مـرُّ الليـالى جدة   وتقادم الأحقاب حسن شباب

كالخمر المعتقة الدكناء

يعطى بها البشرى الكريم ويحتبى بردائها فى المحفل المشهود
كالطعنة النجلاء من يد ثائـــر بأخيه أو كالضربة الأخدود
كالدر والمـرجان ألّف نظمـه بالشذر فى عُنق الكعاب الرود
ورفعت يداً عبلة ذات « غويشات » من الذهب الساطع من نافذة القطار المزدحم فى نهار الصيف الحار ذى الوهج والغبار

Shall I compare you to a summer's day

أحبك حب الشمس فهى منيرة وانت مضىء بالجمال منير

والشاهد حب الشمس إذ لايكون إلا فى البلاد الباردة. أما تشبيه الحسن بالشمس فكثير . وقد عبد الساميون الشمس فى الدهر القديم والعبادة فيها الخوف .

وشكسبير فيه تباهٍ على محبوبه بأنه سيخلد شعرُه جمالَه. والعربى يفخر بجمال شعره فخر زهو ليس فيه عدوان أو تعـال . وإلى شكسبير وإلى الميتافيزيقيين أمثال جون دون ومن عنهم أخذ أو بهم اقتدى ، نظر العقاد .

ونظر أيضا إلى وصف الطبيعة عند وردزورث وأضرابه فأقحمه كما أقحم ابن الرومى أكثر البقول فى

أجنت لك الوجد أغصـان وكثبـان

وما عمد العقاد إلى تقليد الشعراء الانجليز إلا ليحقق نظريته فى وثبة البيت وعطف القصيدة وتعاطفها . الانجليز يعرفون القصيدة والعرب لا يعرفون وحدة القصيدة ولكن وحدة البيت . وهذا وهم كبير . والقصيدة وحدة متماسكة .. وقف امرؤ القيس على أطلال الأحباء فجاء السيل فذهب حتى بما وقف عليه .. ولو فطن العقاد إلى هذا ما كان ليضنى نفسه بمقدمات تطول وتفصيل وتحليل

هاتها واذكر حبيب النفس ياخير ثقاتى
ودع التلميح واجهر باسمه دون تقاة
أترى نحرم حتى ذكره فى الخلوات

يا خير ثقاتى ، خبرنا الثقات عن الثقات قالوا : « جمالك والعلم المبرح والمجد »

غير أنى أمتع النفس بحظ الحدقات

هذا مجهود ما تمتعت به الحدقات إذ نظرت فابتهجت هو يريد ليمتع به نفسه ... كأن النفس لا تكتفى بحظ الحدقات وحده .... وماذا يضيرها إن اكتفت به وتمتعت . وهذا ينظر من بعد إلى قول حبيب :

فما خلت الخدود كسبن شوقا   لقلبى مثلما كسبت يداها

ينظر إلى طريقة حبيب فى تشقيق المعانى وتفريعها . إلا أن حبيبا حزن ليس بخشن خشونة منشار ولكن خشونة إصعاد وحز ... ولا يبالى ما يقول حين يقول متى ثبت عنده أنه المعنى .

لقد أطرق الربع المحيلُ لفقدهم   وبينهم إطراقَ ثكلان فاقد
وأبقوا لضيف الحزن منى بعدهم   قرى من جوى سارٍ وطيفٍ معاود

أى الجوى الذى يسرى إلى والطيف الذى يعاودنى فيؤرقنى هذا هو القرى الذى قرونى إياه فأنا ضيف الحزن بعد إذ رحلوا وهذا هو القرى الذى أبقوه لى .

سقته ذعافاً عادةُ الدهر فيهم   وسمُّ الليالى فوق سم الأوساد

الأساود هى الحيات . أى عادة الدهر بأن يرحل أحبابه ، سقته من الحزن سما ذعافا وسم الليالى كسم الحيات أو أشد

به علّةٌ صماء للبين لم تصِخْ   لبُرْءٍ ولم توجِبْ عيادة عائد

أى هو مريض بالفراق مرضا أطرش لا يصيخ إلى البرء فيبرأ ولا أحد يشعر به فيعوده من أجله وهذا أشد حزنا له وألما .

رفى الكلتة الوردية اللون جؤذرٍ من العينِ وردُ اللون ردالمجاسد
رمانى بخلفٍ بعدماعاش حقبةً له رَسَقَان" فى قيودِ المواعد
غدت مُغتَدى الغضبى وأوصت خيالها
بهجران نضو العيسِ نضو الخرائد
وقالت نِكاحُ الحبِّ يُفسِدُ شكلَهُ
وكم نكحوا حبًّا وليس بفاسد
سآوى بهذا القلبِ من لوعةِ الهوى
إلى ثعبٍ من نطفةِ اليأس بارد

هذا الذى يأوى إلى نطفة باردة من اليأس ليس الحب عنده إلا مادة من مواد الفن يتأملها ويقتبس منها ويصنع صناعته فى ضوئها ويحترق بها آخر الأمر ولما يجاوز الأربعين . « له رسَقَان" فى قيود المواعد » ههنا تأملة نفسانية دقيقة . وعدولا يريد أن يفى ويستحى ألا يفى ويمنِّى" نفسه المخرج بالمطال ثم أقدم فأخلف .

« وقالت نكاح الحبِّ يفسد شكله »

صفه فى عينى ولا تعدو به وصف الأضاة

قال أى المرآة ، أى وصفك له كما تصف المرآة الوجه ليس فيه شعور . وما مرآة تصف وجها إلا وصفته بعينى من يراه وشعوره. الفاتنة لاترى وجهها فى المرآة كما يراه المفتون بها . ولقد تكون هى بوجهها أشد فتنة .... ولقد ارتفع ثوبها عن زند مكتنز وكأن مفصل المرفق خيزران . وتحازيز حيث يلتقى الذراع والزند « كمُطَرَّق ، » الذهب أو « سعَفة » الذهب ، هذه الحلى التى

يلبسها العروس عند « الجرتق » (الجرتق زينة تقليدية للعروسين وللمختون والمختونة فيه الكحل والحريرة والذريره والذهب والودع وعظم الحوت) كأنها سبائك ذهب مضفور فوق البشرة الناعمة الضاربة إلى الخضرة الحرة

كأن مكان العقد من فوق نحرها صفا من حَزِينٍ سهّلته الموارد
عضمرّة" فيها بقاء" وشدّة" ووالٍ لها بَادى النصيحةِ جاهد

أما الآن فعصر الشباب وهى به شديدة الشعور والأسنان مصفوفة صلاب" بوارق بالنقّاء يكشفهن سواد اللثاث وهى تفتر بجناحى حمامة. .... توت توت ... تحرك القطار فى وهج النهار و «يا أب بشرال ورافتوار » ... كأن بينه وبين العدوة القصوى زجاجة .. قاتل الله أبا تمام

تريا نهاراً مُشمِسا قد شابه نبتُ الرُّبى فكأنّما هو مقمر

لقد أدق النظر ... كان يفكر فى معانى القصيدة كما وجدها، كما أورثها إياه أمرؤ القيس وزهير وجرير وغيلان ، وكما يرى الفنّ هو وكما يحس وكما يريد أن يقول . نظر إلى العوادة فراقته وجنتاها ولكن يديها بما تصنعان هما اللتان ملكتا عليه لبه وأرتاه الأسرار

فما خلت الخدود كسبن شوقا لقلبى مثلما كسبت يداها

لا بل أرتاه طلب الأسرار وهو الشوق الذى يبغيه المتصوفة

شغلتنى بك حتى حسبت أنك أنى
أهـ ... له ... ال ... يا الله
ويا الـ .... ـه يا الله
قيــوم

يا حسن .... قيوم
خيول النور . يجن طابور . عليها حبور
سموه الملك . فى كم وكتبك . كم حل شبك . حسن النادر .

ياليلى .... محمد أبويه
ربط ام غور فوق المويه
صيتك راح للبرنو كرويه
تورنا فرود بيسوق ارقويه

يا ليلى نادى لى الخاتم
تور كسلا ياب در٣١ عاتم
الأسرار حاويها وكاتم
وخيل الغيب فوق راسها بيلاطم

ــ الله اكبر الله اكبر

ــ دور شيخك أحمد بن النور

وتوالت بشرى الهواتف أن قد ولد المصطفى وتم الهناء
صل يارب ثم سلم على من هو للخلق رحمة وشفاء

سيدنا فاستمسك

... ــ بالذى أوحى إليك ... هوى هناك
... أولم نعمركم
.... ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير
... ود الحراسات

..... وقالوا ربنا بعد بين أسفارنا...أأنزل عليه الذكر..

حتى زرتم المقابر ...... خير لكم عند بارئكم ... باجاب ألف بى جيب يا ..... بوجاب واو وألف ...

وقف المستر قريفث يعرض عليهم الفانوس السحرى ..... واندفقت القربة ... وعطش المسافر الذى كان راكبا حمارا

أترى ألبق منه باصطياد المهجات
أترى أملح من خطرته فى الخطرات

كل هذا تكلف ما كان أغنى العقاد عنه لولا فتنته بأن ينظم القصيدة كما تنظم وحدة القصيدة الانجليزية ، كما يكتب موضوع الإنشاء وكان حسبه لو اكتفى بقوله :

ذهبى الشعر ساجى الطرف حلو اللفتات
وحيى لايحييك بغير البسمات

وهذا بيت القصيد ... ثم يحتمل قوله

جاهل بالحب أشكو ه ولا يدرى شكاتى

وما بعد هذا تطويل وصياغة وصوت الفكر الخشن فيه جهير والشعر صوت الضمير ... رأى النابغة بلوية حسناء فى موسم الحج وجاءت تفتنه فزجرها .. اعزبى عن الناقة اينها المرأة .. ستحطمك .

— من يشترى أدما . « أى جلودا بصوت رخيم » . ما أفتنها ولكن لا يحل لنا فى هذا المكان لهو او فسوق . — اعزبى — وضربت به الناقة التيه .

بانت سعاد وأمسى حبلها انجذما واحتلت الشرع والأجزاع من إضما
إحدى بلتى وماهام الفؤاد بها إلا السفاه وإلاضلة حلما

حياك ربى فإنا لا يحل لنا لهو النساء وإن الدين قد عـــزما
قلت لها وهى تسعى تحت لبتها لاتحطمنّك إن البيع قـد زرمـا
أى انتهى ... فوتى .. هلا سألت بنى ذبيان ما حسبنى .. مسكين
العقاد وخشونة الكبرياء فى شعره أيضا .
وخشونة التفهيم .. أفهمته كلا ولا عتب .. يقبل العقاد على الدنيا
بكبرياء ويقول لها تعالى أعلمك .

يامن أصون جماله وكـــأنه خصم على تلك المحاسن يحقد
لاشىء أوجع لامرىء من أن يرى حملا يطيب مع الذئاب ويرغد
أخشى عليك من البعيد وأنت لا تخشى من الدانى الذى لايبعد

ولعل « الذى لايبعد » هنا ضعيفة .

وأحوط حسنك بالتمائم والرقى وتظل تنثر عقـدها وتبدّد
وهذا بيت القصيد . الله ! .. البنت ال كنا خاتين ايدنا عليها .
وتبيت ريان الجفون من الكرى والنار حولك والدخان الأسود
مسكين العقاد ... صبر جميل والله المستعان على ماتصفون . ثم
يعلو صوت الكبرياء

لم تتبع نصحى وملت مع الهوى جهلا وغرك أن غصنك أملد
والغصن تسقط إذا يميل ثماره ويزل عنـه الزهر إذ يتـأود
منطق وتدريس ونفس من ابن الرومى .
إن كنت تحميك الطراءة والصبا شر التقصف فالتجرد أنكـد
ههنا نَفَس ابى تمام .

كلا ورب الكعبة . قال ابن الرومى «وأملح من سربالها المتجرد »
أولى بوجهك أن يضيك حسنه من أن يحفّك منه غيم أربد

ـ وهنا أبو تمام فى نَفَسٍ هجائى .. «كُسِيتْ سبائب لؤمه فَتَضَاءلت » ،

هذى يمينى فى يمينك فاعتصم   أولا فارسلها فما لك منجد

يوزيدون ... زيوس .. «والشاعر الفذُّ بَيْنَ الناس رحمن» تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

لو كنت نوحاً لم تفدك سفينتى   إن ابن نوح كان فيمن ألحدوا

أبو تمام ورب الكعبة ونظم كنظم المتون . « وجداً كوجد فرزدق بنوار » « صِرّىُّ عزم من أبى سمّال »

وللطرفات يوم صفين لم يمت   خفاتا ولا حَزْنا عدىُّ بن حاتم

وقال الفرزدق

وكنت كماقال ابن نوح سأرتقى   إلى جَبَلٍ من لُجَّةِ الماءِ عاصم

وكان الفرزدق يعبث . وكذلك كان يعبث جرير :

اذا كشرت إليه يقول بَلْنوى   بلا حسنٍ كشرتِ ولا جميل

ولا يخفى عليك شرابُ حَدٍ   ولا ورهاءُ غائبة الحليل

ترى التيمىَّ يزحف كالقرنبى   إلى تَيمِنيَّةٍ كعصا المليل

ـ لا يامحمد أفندى ياخوى ، بنات النسا ما فيهن شينه كل فوله ليها كيال .

وماكان أبو تمام يتعالى على أحد بتدريس ولكن يدعوك الى المشاركة .... كان يعبث بالنسائب كأنه واقف يتفرج على الحبائب وقد صرن رموزا وطلاسم وهو يحلها ويضيف إليها أصنافا جددا

أزرين بالمرد الغطارف بدنا   غيدا ألفنهم غطارف غيدا

أحلى الرجال من النساء مواقعا   من كان أشبهم بهن خدودا

أمواقف الفتيان تطوى لم تزر وطنا ولم تندب لهن صعيـدا
أذكرننا الملك المضلل فى الهوى والأعشيين وجرولا ولبيـدا

تأمل..ذوات الخدودوالقدود أذكرن أباتمام أمرأ القيس والأعشيين والحطيئة ولبيد بن ربيعة العامرى

نحن بنـو أم البنين الأربعـة
ونحن خير عامـر بن صعصعـة
المطعمـون الجفنة المدعدعـة
والضاربون الهام تحت الخيضعة
مهلا أبيت اللعن لا تأكل معـه

وبعد أن أكل الفطيرة نظر فإذا الفتى بحذائه الغليظ فوق حيث كان يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر . والرغيف يصنعونه كذلك فى الطوابـين .

يسعى بها ذو زجاجات له نطف مقلص" أسفل السربال معتمل
على ظهره قربة ماء ويداه تعتملان أمامه

على كاهل من ذلول مرحـل
نزول اليمانى ذى العياب المحمل

والعجوة الجيدة فى دكان حسين اليمانى . كل ذلك فى كسلا ... أفندى بضباتتين ..

ـ ندورى شقاوة .. ندورى تأب

ـ مررو ... مررو .. ندووری تأب

ـ وانا مين بودينى...وانا مين بعد-ينى..ليكسلا غرب القاش.

وجلسوا إلى شاى العصر فى الشقة عنده شرائح الخبز والسردين والبنضورة والخيار والخس — يقرأ فى كتاب المجموعة الوافية .
لتيوس : خس . سلرى : بقدونس . سبنتش ، سبانخ لم يرَ الخس ولا البقدونس . خس ، الخس بضم الخاء .. المكمامة فى الخس .... المكمامة غرافة يغرف بها العجين من الخمارة (إناء الطين الذى يكون فيه العجين الخمير) والخُسُّ بيت النار من القصب والحطب . والخص بالصاد فى الفصيحة .

كانت تقول له أمه أريد أن احج أريد أن أحج . وتدعو الله أن يدفنها بين الشفيع والبقيع فلما حج بها ومدن اشتاقت الى بناتها ولما أحست الصداع جزعت ألاّ تراهن فقال ابنها وكان مزاحا : « يأمّ هادا الشفيع وهادا البقيع » وكانت جدته قالت له : « عقرباً تسفك » وأصرت على أن ترى الغلام الذى غرق قبل أن يدفن وكانت ابنة عمها حجت مرارا . وكانت فصيحة ذات شكيمه : وحاة الشيخ « وحاة النبى ال مسكت شبكه » ... ورأت حصانا يجر عربة كارو ... « دحين الصافنات ديل بيهينوهن عندكم الهانة دى » . الهانة أى الإهانة ... والتفتت : « دحين ياولدى بتعرف الصافنات ؟ » .. قال حسان لصفية والله مالى بسلبه حاجة يابنة عبد المطلب .

— الأهالى يدوسون هذا التمر بأقدامهم يابُنيَّه

وضحكت ووضعت العجوة على الزبد بعد أن أكلت ورقة خس . ودخل الفتى الشيوعى المطعم فى زغرب وبيده سندوتشة (شطيرة فى الشعر فقط) فشرب ماء ووضع من الملاحة الشعبية على السندوتشة ملحا وشطة وفى أجسام الأوربيين الشرقيين صخامة

إذا وجدوا الطعام وروما من أجمل المدن وأسوان كثيرة فيهاصناعات السعف ـ دق دق دق دق ددق ددق دق

ـ البطيخة دى بكم ـ هادى بتعريفة ودى بقرش
ـ ودى بقرش ليشنو ـ دى حمرا ۰۰۰ حمرا وحلوة

وكانت بقارية طويلة تبيع البطيخ بالظعين (تصغير ظعن وتنطق الظاء كالضاد) ولم تكن البطيخة حمراء ولكن لونها كالرمل وفيهاخييط أسمر ۰۰ هذه حمراء إذ بطيخ كردفان كله أبيض ۰۰۰ حتى بطيخ كلفورنيا إن زرع هناك صار أبيض

كانت ذات الخد المورد تمشى كالولد بخطا شديدة وذراعين كمشية الجنود وكان زميلها الشاب يمشى مشى القطاة إلى الغدير ويكاديكتحل ويتكلم بغنة ويلبس القمصان المزركشة الحرير والسراويلات القصيرة جدا ماثلة أوراكهن صقيلات العراقيب ۰ وهم ناظر المدرسة أن يكتب إلى الزميل فلان وإلى الزميلة فلانة «تنبيه هام لو عكستما طريقة مشيكما» كان ذلك أشد ملاءمة لمذاهب التربية وكان ذلك أرسح أقعس وكانت شطبة كالمهرة ثيابها الخشنة السوابغ عليها عبث ، وكأن عجزيها وهى تهرول هرولة شاب جليد ، بطيختان ۰

أفى الجنة يارضوان تفاح مجانيها ۰۰۰ ومن أسباب خشونته تقليده ابن الرومى وكان لو قلد أبا تمام أشبه به ۰۰ ابن الرومى كما قال طه حسين أراد أن يغالب كتاب الرسائل ؛ طريقته فى التفصيل والتعليل كطريقتهم ۰۰۰ والعقاد يريد أن يستعلى على العواطف بمذهب فنى ؛ هذا النهج نهج ابى تمام فى جوهره ۰۰۰ أذكرتنا الملك المضلل فى الهوى ، فجئت وقد نضت لنوم ثيابها ، ويلى عليك وويلى منك يارجل ، قالوا لها هذا سيتزوج ابنتك

جار لقوم أطالوا هون منزله　　وغادروه مقيـما بين أرماس

« مرية حلت بفيد وجاورت أهل الحجاز » .. أذكرنتا الشعر والأهواء والجنون . أبوتمام قد قدر أن يضبط جماح عاطفته ويخضعه للفن ويجعل الفن ناطقا بجماح عاطفته ، لم لاتقول مايفهم ولم لا تفهم ما يقال

ها إن هـذا موقف الجازع　　أقوى وسؤر الزمن الفاجع

وكان يقرأ هبة الأيام وإلى جانبه أطلس أكسفورد ويلذعه البعوض نصف النهار إذ هذا البيت له باب وطاقات فى أعلاه وقطيع ، جزء خلفه مقتطع منه مظلم له رف توضع عليه الأمتعة . وكان ذلك فى « زمان الهيصة » .. أى أواخر المهدية ..

وجلسوا فى«الدانقة»أى البيت الواسع ووضعوا بنادقهم فى الوسط، ركزوهن بعضهن على بعض فى شكل هرمى ، وأرادوا ليأكلوا ويستريحوا .... «هاى دحين البيت دا ما فيها زول» واخذ حربته ودخل القطيع وجعل يتحسس بسنان الحربة وجعل الرجل الذى اختبأ يتحرك سابقا مسقط الحربةالتى تتحسس ودنامن باب القطيع وفيه ضوء واندفع كالطلقة (أى الرصاصة) فهو عند شاطىء النهر، فَهَوَىَ فى النهر . وكان الشاطىء عاليا والبحر (النيل) عميقا بعد خطوة . وغطس ثم رفع رأسه ليتنفس .... ـ تف .. صوت طلقة فوق رأسه وغطس ثم رفع رأسه بعد حين ... ـ تف ... صار ذلك لهم تسلية وهو الآن كقمرية أو كدجاجة وادى أو كأرنب وهم يريدون أن يصيبوه وسيصيبونه حتما وكان لايعرف السباحة واقتحم اللج .

شليل وين راح أكله التمساح
شليل وينو أكله الدودو

وكانوا يلعبون بنين وبنات عليهن الودع والرحاطة والتنانير ، معصرات وكواعب وكانوا قوما عرَباً • ولم يكن الفتيان يقفون ينظرون إلى الفتيات بعيونٍ مريباتٍ ولا الفتيات يرمين الجمرات بخاتم من نافذة القطار •

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأصابنا صروف الليالى والجدود العواثر

لم يكن ابن الرومى بمحتجب عن عاطفة ولا بمريد أن يستعلى عليها ، يجزع ويضطرب ويتحامق وينافس ويحسد البحترى ويروم تفضيل معانى أبى تمام بلين بشار

لك مكر أدبُّ فى القوم أخفى من دبيب السقام فى الأعضاء
أو دبيب الملالِ فى مستهاميـ ـنِ إلى غايةٍ من البغضاء

فأنى لم أحمدها على جمعه كما حمدتها على حفظه • • • إنى حفظته لك من فتنة البناء ومن فتنة الثناء ومن فتنة الرياء ومن أيدى الوكلاء فإنهم الداء العلياء ، كأنما عصرها من خدى أجداد جدى ؛ كلا ليس ابن الرومى بخشن ، ولكن لين مكشوف العاطفة ، مكشوف القلق ، والحرص ، حبيب إلى النفس ، وهجا البحترى لأن البحترى كان معجبا بنفسه يبصق عن يمين وعن شمال ويقول ألا قولوا أحسنت ، لو امكن تفضيل ابن الرومى على البحترى لفضلناه ، ولكن ليس إلى ذلك سبيل ، ولا تحسبن أن البحترى عابث مغسول المعانى لا يحتفل للشعر كما ينبغى فقد شهد له المبرد بالتجويد والتبريز ، وذلك من أبى العباس عزيز ، وإنما أكره البحترى على أمثال « لى حبيبٌ قد لجَّ فى الهجر

جدا» إكراها . قال المتوكل « عهاعها عها ــ أريد أن أقيء» وكان مترفا يريد الأسلوب الحديث فنصح الفتح بن خاقان البحترى أن ينظم اللين من الكلام .

خلافة جعفرٍ يسن" وعــدل   وحسن سياسةٍ يَسَعُ الأناما

وكان للغبن إذا نظم الجيد قال قولوا أحسنت وبصق على الذوق السقيم والجهل المقيم . مسكين البحترى كما مسكين ابن الرومى كما مسكين الشعراء

خبير بنولِهِبٍ فلاتك مُلْغِياً   مقالَةَ لِهِبِى- إذا الطير مَرَّتِ

وصاح الشيخ ذو الصوت الخشن « إصبعى هذا فيه من العاطفة ما لو قسم على الناس لكفاهم أجمعين » ..« أنا صانع الصنم أحطم الاصنام » طفلا يبكى من خوف الذئاب

هل ثَم من جديد   يا ساعى البريد
لو لم يكن خطابى   فى ذلك الوطاب
لم تطو كل باب   يا ساعى البريد

يريد أن يضحك ، ولكن لا يقدر أن يضحك . ضحكه خشن لأن فيه نشيج بكاء : ... ... بكاء طفل ... ساعى البريد الخشن يلتاع إليه هذا الطفل الساذج البرىء الفطيم عن ثدى أم ذهب إلى عزاءٍ بعيد

ماذا التنسيق   والجمع والتفريق
والقفز والتعويق   يا ساعى البريد

يا سمج

... أحبك يا سمج لو تقدر ان تجلب إلىّ بسمة عزاء

كسوتك الصفراء والخطوة العرجاء
يمشى بها الرجاء يامحنة الجليد
لا أحسب الساعات ثى حاضر وآت
إلا على الميقات ميقاتك الوئيد
فى شرفتى أبتكر غيرك لا أنتظر
وإن سعى لى القمر يا ساعى البريد

وناوله الساعى رسائله أو وضعها حيث عوّده أن يَضعها

ياطائفا بالدور كالقدر المقدور

هذا استطراد محاولة للانصراف عن الموضوع أو الارتفاع فوقه . روح أبى تمام بلفظ ابن الرومى وأدائه . شىء خشن . ما كان أغنى العقاد عنه .

كن أبداً مريدى بالخبر السعيد
وبابتسام العيد يا ساعى البريد

فرحة طفل أو محاولة فرحة طفل . ما أشد ما كانت عزلة العقاد ووحشته حتى طلب العشير من ساعى البريد الخشن البذلة والمشية والبط والإعراض ، ومن أخبار البريد الرسائل ، الفكر ... الذى هو نطفة اليأس الباردة ... مسكين العقاد ... لم يفطن إلى نفسه فى شعره الأول ولكن جعلت شاعريته تتغلب على حجب الكبرياء والفكر الكثيفة التى كدسها على نفسه ، حين تقدمت به السن واحتاج إلى دفء الوداد القريب

كلما قلت لى الربيع جميل قلت حقا وزاد عندى جمالا
عجبا لى ، بل العجيبة عندى صور الكون كم يسعن كمالا

خلتني قد وعيتهن عيانا وتتبعت من وَعَوْها خيالا
شاعرا عاشقا وقارىء كتب قرأ الكتب دارساً فأطالا
فإذا نظرة بلحظك تبدى صورا ماطرقن عندى بالا

هنا الاعتراف الذى يكفر الخطايا ولم تكن به وبالشعر حاجة إلى أن يقول

بعداد الأنوار فى أعين الحب نعد الأكوان والأجيالا

ولم نعدّ الاكوان والأجيال إذا وجدنا الحب؟أليس يكفيناذلك... الشاعر !القارىء الدارس لايقدر على مدى لحظة من جميل و « عاشقاً » كما ترى مقحمة حيث جاء بها ونحو ذلك يغتفر . والآن إذ ذكرنا سيرة المحبوب ، فلنرفع أكف الاحتياج إلى مالك خزائن العيوب..أفى الجنة يارضوان ثواب العبقريات..ما أحب الكروان .. هل سمعت الكروان ... أى غناء .. مسكين العقاد

جبل هوى لو خر فى البحر اغتدى من وقعه متتابع الازباد.

رحمه الله الرحمة الواسعة وأثابه الثواب الجزل . لقد طالما نظر إلى أبى تمام من زجاج الرومى الكثيف الأصفر ولقد طالما نظر الشعراء إلى ابى تمام فأعطاهم كما كان يعطى المعارف والقرابات والندماء ويتخرق فى العطاء

وفى الكلة الوردية اللون جؤذر من العينِ ورد اللون وردالمجاسد.
(حمر الحلى والمطايا والجلابيب) (رب معانٍ وصيقل ألباب وأذهان)

« نصف دائرة الأكوان »

ـــ نادى أب صوبان ، دفع الله .. دفق الوَبان دفع لله .. قوم ياجربان دفع الله ، عنده القطران دفع الله

ـ الليلة لى السراى (أى السارين جمع سار على فـُعـّال) ..
والقوم بريدن براى

ـ الليلة العديل والزين والليلة العديلة ويا عديلة الله .

ـ الليلة العديل والزين والليلة العديلة تقدّمه وتبراه

كانت أصواتهن منكسرة حزينة وهى أغنية فرح للعرس وللختان.
ولكن كذلك كن يغنين ولا سيما كبارهن . بل كانت هذه أغنية
العمات والخالات . وأعجبته الأغنية

ـ سوءنَ العجين والزيت

كان ذلك بكسلا والأطفال يجرون إلى بيوت الجيران ليسرقوا منها
ويخفوا ما سرقوه ويحضر المسروق منه فيفتدى ما سرق بعطية
يعطيها « ود الطهور » (المختون) . شيء شبيه بعادات سبرطة...
وضحكن من قوله العجين والزيت وهو يريد العديل والزين

ـ يابا .. دا بقول يوم السوق ، يوم السوق ...

وضحك أبوه وانما كان يقول : التوم التوم (الثوم) يصيح عليه
ليبيعه وكن حزينات الأصوات حين يغنين أغنية الفرح الخفيفة التى
للمسـيرة

ـ ياعديلة يابيضا .. ياملايكه سيرى معا .. الليلة شوياً بقدرة
الله ... أى شأوا

ـ نحن النيل ال عمْ الوادى .. ترانا جينا اسحفوا لنا غادى
أم العروس جينا ليكى .. جبنا الحرير لينظم الشبيكى (الظـاء
تنطـق ضـاداً)

أم العروس هاكى هاكى .. جبنا الضهب والحجول مكاكى
نحن النيل ال عم الوادى

الليلة لى السراى .. والقوم بريدنْ براى
تعـال نغنّ ساعة لمن انتهى .. اللهْ اللهْ اللهْ .. عليه توكلنا
له الفخر والتبجيل والعز والبها .. الله الله اللهْ .. عليه توكلنا
فذاك إمام الكاملين أو لى النهى .. اللهْ اللهْ اللهْ .. عليه توكلنا
الليلة لى السراى والقوم بريدنْ براى .. اللهْ اللهْ للهْ عليه توكلنا
دوس البيت يانمر .. نحن ال مابنقدر .. عروسكن شينه .. وليها
عوينه ياصَبَرَ الصتُوُر .. نحن البنور ... أى يوى يويوى يوى
يوى أى يو يا يا يا عديلة يا بيضا ... بأصوات جهيرة سريعة .
متحدية من لورى كبيـر مسرع .. أين الأصـوات الحزينـة
عفت الديار محلهـا فمقامهـا بمنى تأبد غـولها فرجامهـا
ـ أولادنا قتلوهم اليـوم
كان هذا زوج ربة الدار الهند غربى يتحدث عن تيم الملونـين
بمنشستر كيف غلب أحدالأتيام البيض .. واولئك يلعبون الكريكيت،
فى الميدان برجال بيض . فى ثياب بيض . عند مضارب بيض .
حمر الحلى والمطايا والجلابيب
قهوة كردوما فى زحام الشارع مع رفيق دَرِبَ بهذه البلاد ،ليس
الآن وحده ، شاى وخس وشرائح خبز ولحم وفاكهة معلبـة
وفتاتان
... أما منهما فشبيهة هلالا" وأخرى منهما تشبه البدرا
وهم فى فندق السكة الحديد الضخم ذى الأنوار جهم كمالم يعرفوا
الجراند هوتيل على شاطىء النيل إلا قليلا .. وسقط إناء فانكسر
وبرق البصر « وإذا الصمت اللعين .. يتمطى ويرين .. وإذا الأبواب
والأنوار والسقف عيون »

ـ دقدق دقدق دقدق .. أفندى لر ... أفندى لر ... أفندى لر ... أفندى لر ... أفندى لر

ألست ترى كيف يمضى القطار فينأى مزار ويدنو مزار
وموج من الأرض فيه النبات وأزهاره فضة أو نضار
يَمُرُّ أمامك مرَّ الهواجس فى القلب منهن ماء ونار

دقدق دقدق دقدق

أصحابه الآن فى لندن . وبعد أيام يركبون القطار إلى استراتفورد ليشاهدو مسرح شكسبير .. سوادشديدعلى مبانى الطوب الأحمر ... وغام زجاج النافذة .. نحن الآن فى المحطة ... نهاية المطاف محطة ماذا ...

دق دق

دق دق

ياحسن سوَّاق الونِش ماتسوق الجدية وتَمِش
ياحسن ياجبل الحديد دايره شوفة السكة الحديد
السكون فى بُرتِّى سودان والمرتب نص وقه ضان

الشتيلة ال فوق جدولا .. جيت امد ايدى اتناولا .. الحراريس قالوا لى لا .. انت فقرى وما بتقدرا

ـ الليلة لى السراى والقوم بريدن براى ـ .. الله الله الله .. عليه توكلنا

ـ أحمد المصطفى ... يارب صل على ... دقدق دقدق دقدق ... توت ... توت .. توت .. انا النحلة وانت الدبوس ... والثعلب ، فات فات . وفى ديله ، سبع لفات . والجبة ، وقعت فى البير . وصاحبها ، واحد خنزير ..

ـ تشكليله ••• هوى يا ليله •• عمتيه ••• هوى ياليله
والمبلس فى الكباية •• والبنات يجروا ورايا

أيهـــا الطائر أهــلا	بمحياك وسهــلا
فقت كل الطير شكلا	زانه ذاك الهـديل
أمكَنَنَّ استودعتنى	حبها إذ ودّعتنى
وكتـــابا حمّلتنى	لفظه يشفى العليل
اننى عنـكن غـائب	والى الأوطان آئب
ارتجى حسن العواقب	من لدن رب جليل

دقدق دقدق دق دق •••

كأنما هو من حلّ ومرتَحَلٍ موكّل بفضاء الله يذرعـــــه
إذا الزماع أراهفى الرحيل غِنىً ولو إلى الهند أضحى وهويزمعه
وأتكأت المضيفة المجنسة على الهولندى أو البريطانى هى تخدمه
وقعدت على حرف من كرسيه ونادها الأصيل الأخضر الأدكن
الشعر من بلدها باحتقار وغيظ ثائر مزجهما معا أيما مزج •••
وتصامتت وصاح وشعر بلذع الإهانة الراكبون•لم يعد الهولنديون
والبريطانيون أهل سيادة ههنا • وهى المجنسه ينبغى أن تعتمد على
خئولتها التى كانت محكومة فقد صارت حاكمة الآن وأعطتهـا
تصيب المنبوذين فى نظام الطبقات الموروث • وما اتكأت عـلى
على الهولندى إلا لتغيظه

اولئك آبائى فجئنى بمثلهـم	إذا جمعتنا يا جرير المجامع

دق دق دق دق دق دق دق دق
افندى لر
افندى لر

ابريل أو مايو ... لعله مايو ... كان ينظر من نافذة الزجاج
والقطار مسرع .
لبيك اللهم لبيك

وروضُ الرخام الأحمر الروض عنده

جلستُ وحبِّي للرسول أكيد

* * * * *

عرّج على جوسَ واذكر عندها الوطنا إن الجبال بجوس هجن لى حزنا

* * * * *

عرّج على جوسَ واذكر عندها الوطنا
إن الجبال بجوسٍ هجنَ لى حزنا
أذكرتنى أركويتاً وهى نائية
والنيل يا ليت أن النيل منك دنا
وإن بالدامر الغربى منزلة
كانت لنا وغنينا عندها زمنا
لدى السيالة إذ جمعُ الصلاةِ بها
صبيحةَ العيدِ والطبلُ الذى رطنا
تبثنتها قد هوتْ من بعدِ ما سمقتْ
حيناً من الدهر لم تذمُمْ لها فننا
وما أسفتُ على شيءٍ كما أسفتْ
نفوسنا يوم أمسى حيّنا ظعنا
تخرّموا والمنايا ذات تفرقةٍ
بين الخليطِ الذى قد طالما قطنا

وقد ذكرتُ بذاك القفرِ والدةً
ريعت غداةَ نعى الناعى لها حسنا
وقد تحدَّر من عينى وقد قرأتْ
كتاب منعاه دمع قطرُهُ سَخُنا
إذ فارقته قريباً إذ يقول لها
لمّا دعتهُ ذَرينى ألعبَّن هنا
إذ كان يلعبُ حُرّاً إذ تربّص لِلْ
عصفور إذ خلفه صِلٌّ الردى كَمنا
لما أتتْ من ضريح الشيخ فاجأها
برفع كفّيه ناع لم يكُنْ فَطِنا
وجدة أبلت البلوى شكيمتها
وكان مرُّ الليالى بالأسى قمنا
قالت ألا فاكشفوا عنه لنُبْصِرَه
والثُكْل مرٌّ وحمل المُثقلاتِ عنا
لمّا رأت جسمه غضّاً كما عهدت
والروح فارق من زُرْيابه البدنا
قالت أماتَ غريقاً أم أتيح له
حَتْفٌ سوى ذاك أم رَيْبُ المنون أنى
وقد تجلّدتا للرزءِ وأبتَغَتا
أجرَ المهيمن والإيمانُ لن يَهِنا
وكانتا برجاءٍ تُبْصران مَعا
وربَّ غيرهما لليأس قد ركنا
وزالتا بعد ما بالصَّبْر صابرتا
الضراء والعيش بعد الرِّقةِ الخشنا

سقاهمـــا الغيــث الا يفنــى وخصــهما
رضــا المليــك برِزقٍ عنــده حَســـنا (١)
وقـــد تجلــدت حتى خلتنــى حَجَـراً
وقـد صـبرنا وكــان الحـرُ ممتحنـــا
وقـــد تجلـــدت حتى خلتنـــى حجـــرا
حتى إذا جنَ ليـــلى أرسَـــلَ السَّننـا
ورام فى الفصـــل يومـاً عطـف أفئـــدة
عليـه شَيَنْخٌ جهـير شـدَّمـا لســـنا
فقـــال هــــذا يتيـــم والداه مَعـــاً
ماتـا إلا إنـه حقـاً لقـــد غـُبنِـــــا
إنــى عليـــك حزيـــن يا بُنَـــىّ وإن
تَحزَنْ فــرزؤك مـــن أمثـــاله حَزِنـا
ولـم يزل هـــكذا يرثـى لــه فمـــرى
دمـوعه بعـد ما للصــبر قـــد سَكَنَا
يا حبـــذا غضـب الشـيخ البشـير وقـــد
كنَّا نلـوذ بــه مــن دهـرنـا ركـنـــا
وكنـــت إذ زرتـــه ممتـا يجـــاملنى
مثـــل الكبـير الذى مقداره وُزِنـــا
والشـــيخ مــن قَبْـلُ عبد الله أودَعنـــا
حُبَّـــا لــه ولديــه حُبُّنــا مكنـــا
يا رحمــة الله صُــبِّى فــوق أضرِحـةٍ
فيهـا السكينة قد كانـــت لنـــا جُنَنـــا

(١) بضم السين او فتحها ، فالاول فعل ماض والثانى نعت مقطوع فالنصب وجه من وجوهـــه ان شـــاء الله .

وقـد عجبت مـــن الدنيـــا التى أخـذت
منـــا الكثير وما أعطـت بـــه ثـمَـنـــا

وإتمـــا هـــذه الدنيـــا كغانيـــة
تَزَ َيتنت ولهـــا طـرف الغــرور رنـــا

والصـــالحـون عبـــاد الله إذ رغبـــوا
عنهـا إلى الله كانـوا معشـــرا فُطَنـــا

والكبـر أكثـرُه زيـفٌ وقـــد شـــهدت
عينـــاك شـأن أبيـــك الطيِّـب الطَّبِنا

وكنـــت تعهـده مـن بعـده ماهجعـــوا
نشـــوانَ بالآىِ يتلـــو ثُمنـنـهُ الثمنا

وصيِّتـــاً حـــافظاً ثَبتـــاً روايتـــه
للشـــاطبيـــة عـــن أشياخـه لقِنـــا

إذ تخـــرّق بالأسبـــاع جوّدهـــا
ولا تكـــاد تُحِسُ المـــدَّ والغُنَنـــا

وشـــعره كـــان عذبـــا حـين ينشـــده
وكـــان بالشـــعر طبـــا بارعـــا لَحِنـــا (١)

وكم شـدا « يلذرا ذات القصـــور » و
« أيّام لنـــا سـلفت » فيهـــا الأســـاسَ بنى (٢)

النحوَ والصـرفَ والشـعر الرصـينَ
وأصنافُ الكتـــاب الذى لم يَـدْرِهِ النقرَنـا

---

(١) لحنا بكسر الحاء عارفا فصيحا .

(٢) سل يلذزا ذات القصور لشوقي ولو لا يزيد وأيام لنا سلفت لمسلم ابن الوليد : والاساس مفعول به مقدم .

وكان مُرّاً عزيز النفس مبتعداً
عن الدنايا وللفحشاءِ ما أذنا

مواصلا لأولى الأرحام مُدّخرا
عند العشيرة للأيام مؤتمنا

حلْوَ الفكاهة بساما محبّبة
إلى النفوس سجايا طبعه مَرِنا

وقد بكَوْه بأصواتٍ مذكّرةٍ
والثاكلاتُ الألى ما إن ينين ونى

وشائلين بأيديهم فئوسهمو
مع العِصِيّ وكم أشجى وكم حزَنا (١)

وقد تذكرت أياما مضين لنا
إذ نحن فى كسلا والعيش قد لدْنا

وآلَ الأَزْرق إذ كنّا نجاورهم
طابت عشيرتنا فيهم وعشرتنا

وكم مدحنا « صلاة الله دائمة »
كنّا قليلا وقِدْماً فى القليل غنَا (٢)

وكنت تشدو « نسيم البيت » مجتهدا
و « ردْفاً » لاترى مثل المديح غِنا (٣)

---

(١) حزن متعد تقال حزننى واحزننى .

(٢) و (٣) هذه مدائح للشيخ المجذوب رضى الله عنه : صلاة الله دائمة على المختار فى الرسل ، و« نسم البيت لاقانا » و (ردف السلام للنبى الامام).

وقــــد تذكّـــرت فـــى تـَكَنْرُوف موقفنـــا
إذ يمتـــح البـــدو ذاك المـــوردَ الأجِنـــا (١)

إذ الحمـــارُ الـــذى قـــد كنـــت مُرْتَدِفـاً
عليـــه أخنَضَرُ شـــهم يجـــذب الرســـنا

وقـــد تذكـــرت لمـــا آب من سَفَرٍ
يُهْـــدِى إلينـــا وما خاطـــوا لـــه الكفنـــا

وقـــد نظرتُ إليـــه وهـــو محتضـــر
وقـــد شهـــدت وقـــد صفّوا له اللّبِنا (٢)

وقـــد وقفـــت عليـــه حيـــن وســـدّه
القوم التّـراب وصَـــوْتٌ عنـــده لَحَنـــا

واســـترحمـــوا ريثمـــا تحشـــو أكفّهمـــو
وهِيل هَيْلٌ عـــلى القبـــر الـــذى دُفِنـــا

وهـــادرين بحـــدْرٍ مـــن تلاوتهـــم
وآخـــرين سِراع أحضـــروا الجُبَنَا (٣)

وكـــان فى القـــوم منصـــور وكـــان لـــه
خـــلاً وكـــان وَسيمـــاً وجنهُه رَضِنا (٤)

ذا لحيـــةٍ خالطـــت شيبـــاً سبائبهـــا
زانت ؛ ولم يســـتدر عثنونُهـــا ، الذَّقَنـــا

---

(١) تكروف بئر بناحية كسلا . (٢) اللبن بكسر الباء الطوب الاخضر. (٣) الجبن جمع جبنة بالتحريك وهى اناء البن فى السودان يصنع من الفخار وصنعه اليابانيون من الصينى وقد يصنع من الصفيح وكل ذلك دون الاناء الفخار القديم. والحدر قراءة القرآن السريعة (٤) هو ابن محمد ود احمد ود منصور رحمه الله

وقد أقومُ قبيل الفجر أصدحُ
بالقرآنِ أتلو ويعلو صوتِيَ الدُّجَنا

وأسأل الله شؤبوبَ السلام على
قبرٍ تضمّنه يا طيب ما ضَمِنا

وللقواديس أمواهٌ تدفّقها
والسندقيق شجاه يفعم الأذنا (١)

وقد صحبتُ أناساً عند ساقيةٍ
يقدّرون لقطع النّامةِ الغصنا (٢)

وقد رأيتُ بصيراً ذا تكلّفةٍ
ينحي القدوم بحذقٍ حيثما سقنا (٣)

وقد تعلمت من لفظ اصطلاحهم
ذرْواً كقولهمُ «التوريق» و « التكنا » (٤)

وكان جدّي جلال الدين بدّله
مرُّ الحوادث من بعد الشّطاط حنى (٥)

---

(١) القواديس جرار الساقية والسندقيق بوتن فتعليل « وزن عروضي لا صرفي » هو تروس حلقتي الساقية وهو من خشب السنط واحده سندقيقة والكلمة مروية او فرعونية او نوبية والله اعلم (٢) النامه هي الجزء المعقوف من غصن السنط الذي يصلح منه عمل الحلقات . (٣) القدوم مشددة الدال في العامية وسقن (باب ضرب) قشر . (٤) التوريق عمود الساقية والتكن حيث يجلس من يسوق بقرها. (٥) الشطاط اعتدال القامة ، قال عوف بن محلم يذكر سنه وهي ثمانون :

وبدلتني بالشطاط الحنى وكنت كالصعدة تحت السنان

وكان ذا رقة لين العريكة مو
دودا وديعا وسهلا قط ماحزنا (١)

سقى ثراه حيا غفران خالقه
وفى الجنان لدى رضوانه عدنا

وحدثتك عن الأجداد إذ ركبوا
وأنشدتك أناة مثلما زكنا

والنائحات على شيخ أخى طرب
ركبن يفدينه الأفراس والحصنا

بنات بيرق والأيام فاجعة
وآل بيرق ماتوا موحدا وثنى

يا رحمة الله سحى فوق أضرحة
عند اليباب نكرنا بعدها الزمنا

وحدثوك عن الشيخ الذى عهدوا
مثل الهزبر وقالوا قط ما جبنا

وعند تجبير كسر الساق ما طرفت
عيناه شيئاً ولا عن شأنه شئنا

وفى القضارف لما راهنوه أتى
محمد بذراع الليث مرتهنا

وكانت ابنته صفراء خالصة
رأيتها إذ أقامت أشهراً معنا

(١) حزنا بضم الزاى صار حزنا غليظ والحزن بسكون الزاى ضد السهل .

ثم افترقنا وريب الدهر مدٌ لها
من بعدنا من قرانات الردى قرنا

من النساء حصان" ذات مقربة
جاد السحاب ثراها غيدقا غَدِنا

وقال شيخ بنى صيفا بَنَىْ نَقَرٍ
وكان أبلج يرعى الفرض والسننا

ردّ الجموع لدى بحارةٍ عمرٌ
بباعه هكذا كالطود إذ رزنا

أولاك قومىَ ماقوم كمثلهمُ
والمرء فى الدهر يلقى الغمّ والغبنا

لا يبرحون على أمرٍ توارثه
آباؤهم إذ يهيج الهوج والهجنا

تواضعا وإباءٌ وادخار أُسىً
والجدُّ فى الحرب لما أنْ بها أُذِنا (1)

هم قاتلوا بسيوف الله مصلتةً
وبالحديد فما كلُّوا وإن وهنا

منهم أبو القاسم المرء الذى قتلوا
فلا استكان ولا عن دينه فتنا

---

(1) اسى بضم الهمزة جمع اسوة . اذنا مبنى للمجهول : علم .

لقد تذكرتهم ليلا ومنزلتي
كنشو فأكرم بالقاب لهم وكنى

إذ بعدهم أرد الجُدّ الظنون فما
أروى به وأخوض الضحضح الأسنا (١)

إذ يصبن الكأس عني من أُريد له
كوب الخطود وكتوبي عنه ما صبنا

وقد تذكرتهم كيما ألوذ بهم
وربّ غيري إلى أوكاره وكنا

بهم توسلت لما ضامني زمني
حتى اغتربت وكنت القارح الأرِنا (٢)

وقد رأيت وقد هومت مكة في
نومي فأولت ذاك النصر والأمنا

وكنت أسأل فيها عن منازلنا
بالأخشبين وأجيادٍ وخيف منى (٣)

صلى الإله على الهادي النبي كما
هدى وجازاه عنا السرّ والعلنا

ولا يزال الحيا يهمي على جدث
فيه السراج الذي نجلو به الفتنا

---

(١) الجد البئر الظنون التى يظن بها ماء ويكون قليلا او غير موجود بفتح الظاء.
(٢) الارن بفتح الهمزة وكسر الراء : النشيط والارن بالتحريك التنشط .
(٣) الاخشبان : جبلا مكة .

حِيالَهُ عُصَبُ الإيمان واقفةٌ
يستمطرون على روضاتِهِ النِّعَمَا (١)

وقد تذكرت حين الشيخة اتخذت
ناراً من البرد عُذْرُ النار ما أمِنا

تبادر الوقت تخشى أن تفوتَه
وقد تكون كمهر الحرب إذ صفنا

حجت وزارت وكانت ذات مأثرة
وفكرها سِيَرَ الأخيارِ قد خزنا

وأمها جاوزت عشرين عن مائة
أو فوق ذلك شيئاً أو إليه دنا

كلتاهما فى ضريح الشيخ تبصرها
عند الفِناءِ وهذى الدار دار فَنا

يابوأ الله فى الفردوس روحهما
دار المُقامة لاضَنِيماً ولا ضَمَنا (٢)

يا صاحبىَّ أعينانى على خطط
بعد البلاءِ ألاقيها لا مُتَحَنا

إن الصبابة قد عاصيت صولتها
وإن قدرت على غير اجتناب جنى (٣)

---

(١) جمع معين . (٢) ضمن : مرض بالتحريك. (٣) ان نافية مثل ما ولك ان تقول وما قدرت وهى كذلك فى البيت التالى .

وإن وجدت معاصاتى لها كسبت
إلا الغرامَ وقد كان الغرام ضنى

أم لا تزال ترى للحسن أوديةً
مسحورةً ودُنىً من دونهن دُنى

وعين قلبك ما تنظر بها وجدت
مع الأسى من رُؤى الكون الجميل مُنى

إن المليحة لمادارها شطنت
هذا الفؤاد على آثارها شطنا

حتى أرى أركوتنا وهى نائية
والنيل والصين من توتيل والقننا

والقاش أحمر جياشا غواربه
وزرت عند الضريح السيد الحسنا

وعصبةٍ عند غرب القاش كادحة
جمهورها بعبور القاش قد مرنا

تراهمو يحملون الناس ضاحية
على الأسرة ينزو بعضهم أرَنا

كما المحاملُ حولَ البيتِ خفّ بها
مطوّفون عليها الطفل واليَمَنا (١)

و « فتندكٍ » عاورت ثنتان ردّته
والعيش من قبلُ فى « مرْحاكةَ » طحِنا (٢)

---

(١) اليمن الشيخ الكبير الهرم. (٢) الفتندك هاون من الخشب والمرحاكة حجر يطحن عليه والعرب تقول رحك يرحك والهاء قد تصير حاء .

حتى ترى نَفَيَاناً عنه طار وقد
عجبت عند دقيق منه قد عُجِنا

وعجوة لحسين شيخ ذى يَمَنٍ
والسدر ذو النبق الغض الذى سَمُنا

« والإندرابُ » الذى فى طعمه لِزَجٌ
والدوم أحمر فيه الماء مُختَزَنا (١)

وبالفدادين أصنافٌ مزركشة
من الدنانين قد نلهو بها عَنَنا

ندنى لها النار كيما أن تطير وقد
تطننا لها الشوك بالنفَصَيْن قد قرِنا

كما تطير بجو ذات أجنحة
من الحديد حَشَوْها النار والدُخَنا

لعلها صرخَتْ من مس جاحمها
وفى لظى يصرخ الصَخر الذى فُتِنا (٢)

وقد سبتكَ فتاة كالنبيذ ثقيلٌ
ردفها مشتهاة لدنةٌ غصُنَا

وجاملتك بالحاظ لها ضحكت
وزودتك سرور القلب والحزنا

وإن نوناتها لمّا أبهت لها
حكَيْنَ بَرْقَ خريفٍ رشَح المُزْنا

---

(١) الاندراب من شجر كسلا له ثمر حلو مزلزج ولك ان تقول و«القلق» الدوم والقلق بضم القاف وتشديد اللام الدوم ، قبل استوائه .
(٢) فتنا : علب قال تعالى « يوم هم على النار يفتنون ».

مــن المضيفــات إذ ودّعــت صاحبنــا

وكــان قــد جــاء يستجلى حقيقتنــا (١)

وقــد نراقــب أسرار النفــوس وقــد

تُغضى حيــاءً وبُقيــا تلــك سيرتنا

وقــد نصيب ســويداءَ الفــؤاد إذا

نبغــى مــن الغضــب الداء الذى دفِنــا

وقــد بلونــا ضروب العيــش واختلفــت

بنا الخطــوب ورزنــا الحــزم والوَهَنــا

وقــد بكينــا فجفَّ الدمــع حيـن بــه

طــال البُكــا فــوزنّــا الشــعر فاتزنــا

مــن البســيط الذى أجــزاؤه اتســقت

وضربــه وعروض منــه قــد خَبِنــا

نشــدوه فى خــلوة الوجــدان تحســبه

وهــو الشــهيد على ايمانــنا دَدَنــا (٢)

ونورنــا الشعشــعانى الــذى غمــرت

بالفيض أحرقتــه الأريــاف والمدنــا

يا حــبذا النيــل والروضــات زاكيــة

النمشــورى وطيبــة المــأوى وذات جنــى

---

(١) اى مضيفات الطائرات ولك الوصيفات وما البتنا اجود .

(٢) ددن : لهــو .

وحبــذا جــارة لــوادى منــازلهـــا
عنــد الخميلة قــد كانــت لنــا ســكنا
عنــد الخميــلة بــين الدوحتـــين لــدى
حيث الفـؤاد الـذى لم تفـدهِ رُهنـا
وحبــذا مجتــلى هنــد بعــارفــة
من العوارف يعشــى ضوءُهـا المِحَنــا
وحبــذا القــوم إذ آواك ودُهمـــو
حتــى نســيت لدى صهبائــه الإحَنــا
وحبــذا ذات إســفارٍ بــذى خَفَــرٍ
كأنهــا رشأ البيــت الذى شَــدَنــا
وحبــذا منــزلا جَــوْسٍ ورابيــة
قد هيجت لك هــذا الشــجو والشجنــا (١)
وحبــذا هــذه الدنيــا نفارقهــا
وقــد أعرَتَنــا بهــا أرواحنــا المِهَنــا
نريــد حرِّيَّــةً كبرى وكيف بهــا
والفكـــر فى القيــد والأغــلال قــد سجنــا
إن التى ابتســمت لى فابتســمت لهــا
قــد غــوّرت جرحهــا فى القلب فاندفنا
ثــم ابتســمت لهــا من بعــد فابتســمت
وكــان ذلــك لهــوا والغــرام عنــى
حــتى أرى جزلــة العيــنين مشرفــة
النخــدين فى شــفتيهــا الشــهــد واللبنا

---

(١) جوس بنيجيريا مصطاف .

زيتونة أريحيات شمائلها
بمثلها فُتِنَ المستور فافتتنا

من اللواتى إذا ما ظلها وجدت
عَيْنُ الغريب ذَرَاه ذاقت الوسنا

لما بدا الساحل الغربىُّ وَاتسبت
نخيله فنكرنا الخوص والأَهْنا (١)

مغدودفا كدر الأنهار ذا غَمَقٍ
يُهْدِى المحيط إليه الصَّخَبَ الدُّكْنا (٢)

بكى على النيل صبٌّ لايزال يرى
خَلْفَ الظلال حنان الشاطئين حنا

من كلّ حسّانة طالت تجاورها
صنوانَةٌ ذات قَطْفٍ من يديك دنا (٣)

وهيّأ الجمر يُذْكيه لقهوته
خِشْفٌ أعيفِرُ لاح الليتَ والأذنا (٤)

كالبِسْر سُمْرَة نهديها إذا لمست
منك البنانة كفيها فذاك هَنَا

طورا يسوفُ دخان البنِّ راقبه
وتارة يسمع الإيقاع إن سُحِنا

(١) الاهنا جمع اهان بكسر الهمزة وهو عرجون النخل ونخيل الزيت والنارجيل كلاها لين السعف كانه عشب وليس بذى خوص كالنخل ولا عراجين كعراجينه.
(٢) مغدودفا : مظلما من الخضرة . غمق ندى وماء كثر . الصخب الدكنا : الامواج
(٣) الصنوانة هى النخلة التى تكون معها اخرى .
(٤) خشف ظبى اعيفر ترابى اللون فيه سمرة وبياض ، الليت جانب العنق ومنصوبة على شبه المفعولية كانك قلت لاح ليتا .

يا حبذا وجه أعرابية ألِفَت
حديثها النفس ما إن ودُّها أبِنا

إذ الدويم « عرشنكول » الجمال به
نرنو إلى الروح لا نبغي به البدنا

وقد تذكرت أياما بلندرة
وقد تكون لنا أيامها وطنا

إذ الشباب طريفٌ والهوى أُنُفٌ
والحبُّ مستطرفٌ والعيش ما غَضُنا

وأتحفتك بحلواها مُدَلَّهة
كأنها ذات طوقٍ تبتغي فننا

يأيها البارق الساري بتَزجِيَةٍ
يعلو الستار ويعلو صَوْبُه قَطَنا (١)

إن امرأ القيس لما عينه نظرت
إليك بالشام أبدى شَيمُه اليمنا (٢)

لما بدا الأل من حوران مرتفعا
وأنس البال فقد الأل فاحتزنا (٣)

---

(١) هنا اشارة الى بيت امرىء القيس على قطن بالشيم ايمن صوبه وقطن والستار موضعان ذكرهما .

(٢) لانه في الرائية وصف الشقر وهو بالشام وراى يثرب وهو بالرعات وهلمجرا.

(٣) اشارة الى قوله ولما بدا حوران والآل دونه .

لا أمُّ عمــرو قــريـب مــن مضاربنــا

ولا الربابُ إليهــا طَــرْفنا شَفَنَــا (١)

ولا أظــن خطـوب الدهــر تتركنــا

حتى نجـــوز إليهــا السبعة العُنُنا (٢)

وقــد رأيــت أصــيلاً فــوق طائــرة

تعلــو السحــاب وجُنْنحَ الليـل إذ دَجَنا

كلــون سُنَّــة إثيوبيــة نَزَحــت

مــا إن تؤمُّ بهــا الخرطــوم أو عــدنا

والسحب مثــل ركــام الثلج أكثبــةً

تُضَــدن أو أشبهــت أثباجــه القُطُنا

أم هــل تذكــرت جيرانــا بــذى سَــلَمٍ

يُــدمنُــون على صحرائه الدِّمنــا

ونشــوةٌ من كئوس الــراح شــاكرةٌ

عــلى محيــا الأديــب الكهــل أذ أمِنــا

وحضــرةٌ قــد جلوناهــا منيلتنــا

وَصْلَ السعــادة بالسِّر الذى زُكنــا

حتى نــرى ذَهَبــاً نَضْــراً ولؤلؤةً

لا تُستتَبــاح وشَعْراً بالشذى دُهِنــا

وأفــرحتك التى حيَّتْ بحــاسرةٍ

مشبوبــةٍ فى فــؤادِ الصــب ذات سنا

---

(١) شفن نظر وذكر ام عمرو فى الرائية والرباب فى ميميته .
(٢) العنن بضمتين جمع عنان والعنان، والعنان ناحية السماء .

وأرعشت كبد المشتاقِ لوعتها
نبيلةَ الأسْرِ ريّا تعشق الحسنا
وإن لمع ضياءٍ من ذؤابتها
لما بثثتَ إليه الشكوَ قد أذِنا
والله إنّ سعيدا من رأك بلى
إن السعيد الذى ما ريع أو غُبِنا
إن السعيد الذى ناجاك مغتبطا
يجنى جناك وودُّ الغانيات غِنى
صافحتها بيد ترجو مودتها
وصافحت كعناقٍ ضمّ واحتضنا
وأفعم القلب حبِّها وخلت لدى
لقائها أن دمع العين قد هتنا

* * * * *

ددق دق ددق دق ددق دق

* * * * *

وروض الرخام الأحمر الروض عنده
جلستُ وحبّى للرسول أكيدُ
تعشقت فيه قبل أن أعرف الهوى
وقد أورثتنى سرّ ذاك جدودُ
فلا تسألى عنى سلى عن خليقتى
فإنى ألباب الرجال أفيدُ

وادى النيل البعيد

ألا إنّ وادى النيل منك بعيدُ
فهل أنتَ لما أنْ نأيت سعيد

تذكرته لما صرمت حباله
وهل يَصرمنّ الحبلَ منك عميد

فياليتَ شعرى هل لَميس كعهدها
ولم تتبدّل من لَميس عهود

وما هى إلا غادة قد ألفتها
لدى النيل بين الدوحتين تميد

هنالك أوطانى وبدّلت غيرها
ألا إن أوطان الرجال قيود

وكيف الذّ الرّيف والرّفه والغنى
وهنّ لفقدان العشيرة بيد

ولكنّ دارَ الفكر دارى وإنّها
لنائية" إنّ البليد سعيد

سَعَيْت اليها سَعى جدّ وربّنى
أب" كان روضات العلوم يرود

وناهض مرّ اليتم فيها وهاضه
وَفاةُ أخيه الفذّ فهو فريد

وغالب فيها غَيظَ كلّ منافس
وحفّت به وهو الصغير حقود

وقال له المرء الذى كان ناظراً
نَجَحت ولكن لا أراك تفيد

ومن قبـــل وصّى أنه غير نافــع
وذلك مـن دون النّجـاح وصيـد (١)

ولكــن دار الفكــر كانــت بعيـدة
ومـا فتئت ان النّفيس بعيـــد

عــرفت اليهـا لنـدنا ثمّ بعـدها
دنت لى مـن آفـاق مصر ريُود (٢)

وقــد زرت باريســاً اليها ووادى الـ
لثوار وحيـث الجانبـان جليـــد

وتونس والحمـــراء أرض مـراكش
وشـاهدنى فى كـربلاء شهيـــد

وفى عـــدن دار الأديب ابـن غانم
وحيث وراء البحـر عاش هنـــود

ركبت اليهـــا زورقـــاً وسباحـة
وعطـــلة صيف والطـــريق كئـود

وسرت لهــــا فى العيــد بين أحبتى
بدامـــر لو كان الزمـــان يعـود

وخـــاصمنى فيهـــا ويعـــلم أنّنى
أحقّ بهــــا ذو غيرة وحســـود

وخـــاصمتهم فيهـــا ويا ربّ خطـة
يضيّعهـــا ذو الحـــزم وهنىَ سديد

وهـــل باعنى للنّـــاس علمى غاليـا
ألا إنّ بيعى غاليـــا لزهيـــد

---

(١) الوصيـــد الباب .
(٢) ريود جمع ريد بفتح فسكون وهو ما نتا من الجبل من انف ونحوه .

وهل يَبْذُلُ المرءُ الحصيف عَتاده
لشيءٍ وريبُ الحادثات عتيد
وقد زُرتُ بَيْتَ الله واخترت خِيرتي
بيثربَ إني للرسول ودود
وقد طُفْت بالبَيْتِ العتيق ولامَسَتْ
يَدِي ركنه حين الزحام شديد
ورَوَّيْت نفسي من سُلافَة زَمْزم
وعجَّت لدى ضيق المقام وفود (١)
ورَوْضَ الرُّخام الاحمرِ الروض عنده
جَلَسْتُ وحبّي للرسول أكيد
« تعشقت فيه قبل أن أعرِفَ الهوى »
وقد أورثتني سِرَّ ذاك جدود
وحاربت بَغْضاء الجُفاةِ ولم أزل
على صَدَمات الصادمين أزيد
وكان يَراهُ الآجنبيُّ قريعه
فسمَّاه مَغْرورا وذاك جحود
كذلك كَيْدُ الأجنبيِّين واقتدت
إماءٌ على آثارِهم وعبيد
وما بَكَت الأيَّامُ فقدي مودَّةً
ولكنها كَيْدَ العدُوّ تكيد
وعند الاله الغَيْبُ أجمع ربَّما
بَكَتْ عليها وهي بعد فقيد

(١) وهو مقام ابراهيم عليه السلام .

أما علمت أنّ الزمـــان الـــذى نأى

بنـــا علّه يدنـــو وأن سنسـود

ألا إنّ دارَ الفـــكر وهى منيعـــة

حمـاى وحـــدّى للعـداة حديـــد

وقـــد لمَعَتْ فى الفجـــر منها لوامعٌ

وبادت وما الجهـــد الأصـيل يبيـــد

فلا تســـألى عنّى ســـلى عن خليقتى

فإنّى ألبـــاب الرجـــال أُفيـد (١)

ألا بلّغـــا عنـى المليحـــة أننـــى

أحِنُّ اليهـــا والمـــزار بعيـــد

وقـــد تَعلَمُ الحبّ الذى هـــو فى الحشى

دخيـــلٌ وفى العينين منـــه شهيـد

وأعجَبُـــهُ منهـــا تطلّعُ جيـــدها

إليـــه أدارَ الآخـــرين تريـــد

فقلت لهـــا كلاّ ولكـــنّ جانبـــاً

اذا رامـــه منـكَ النّضـــالُ عنيد (٢)

وقد ودّعتنى ليَـلةَ الدار عُصْبَـةٌ

كِـــرامٌ وقـــومى الطيّبـون شهـود

وقـــد أجفلت لمّـــا أردنا وَدَاعهـــا

لَميسُ ومنهـــا جَفْـــوةٌ وصدود

وعـــاشرتها الدّهر الطـــويل وانهـــا

على طـــولِ ما عاشرتها لكنـــود

(١) الباب مفعـــول به مقـــدم .

(٢) الكاف للمخـــاطب التفـــات .

تمادت لعمرى فى الدلالِ وطالما
همَمنا بها والكبرياءُ حدود
وقد زودتنا ساعةَ البين قبلةً
فتاة طريفٌ ودُّها وتليد
وقد ذكرتنا عهد أيَّام لندن
فَتُقنا لها والذكرياتُ عهود
وسرَّك فى زُدياك آدم مَنظرُ الجبالِ وفى دوْرا رواقِصُ غيد(١)
تلَوين حتى خلتهنَّ تمازجت
مع المَوْج فى أكفالهن نهود
وقفن معاً فى الصفِّ خَمساً وأربعا
ومالت على أكتافهنَّ خدود
تراهُنَّ مثل الخيزُران الذى ارتمت
به فى الخُطا والساعدين قدود
ويَرنون من لَهْو الحديث بأعيُن
كأنَّ ندى أحداقِهنَّ نشيد
وهيهات منك النيلُ اذ هو مُزْبد
واذ هو من برد الشتاء برود
وهيهات تيَّار بواديه جارف
وآخر يَغشى حَجْرتيه وئيد
واذ معنا الكَعَّاك وهو مُهَذَّب
لبيبٌ وبعض الوافدين بليد
وأدرك لمَّا أن رأى ريفَ أرضنا
أصالتنا إنَّ اللبيب صيود

(١) دورا بنيجيريا مدينة اصل الهوسا .والزودياك المشار اليه سيارة وآدم سائقها.

ويمدحنــــا طورا ويمــــدح قومــــه
بــــلا سـرف ان الغبىَّ يئـــــود

وروَّعنــــا اذ لاح أسنــــوَد زاحِف"
له غـَبـَرات فى التَّنــــاضب ســـود (1)

واذ منزلا أسمــــاء خَفَض" ونعمـــة
واذ هى تـُبنـــدى فَنـَنَّهـــا وتعيـــد

واذ يـــدك السـمحاءُ بالبـرِّ سَمْحـة
لمـــن يعترى إن الـكريم يجــــود

وإنَّك ســــم" للعــدوِّ فـلا تَخَفْ
أفاعِيـَهـم واصـــبر وأنت جليـــد

وقـــد يَعلَمُ الاقـــوام أنَّك صُنْتهم
وأن خــانهم مــن قيــل كـــان يذود

ولو أنَّ قـــوماً أنصفـوك حمـــدتَّهم
وأنت وإنْ لم يُنْصِفـوك حميـــد

ألا ان دار الفـــكر وهى سَعِيـــدة"
لـــدارى وإنـى عندهـــا لسعيـــد

ألا إنهـــا سَعْى" وجـــدٌ وغربـــة
وتَجرِبَة" عنهـــا الرِّجال تحيـــد

---

(1) هو ثعبان اسود . التناضب جمع تنضبة وهى ضرب من الشجر ذى الشوك.

ألا إنها زادِى وآدِى وعُدَّتى
وعادى وأعدائى هناك حصيد

كما دُمِّرت بالرِّيح عادٌ وغودرت
بطاغيةٍ فى الهالكين ثمود

ألا أيها النيل السعيد تَحيَّةً
ذكرناك فاعلم إنَّ ذاك ورود

كما وردتك الزائراتك بالحِمى
وماؤُكَ مَيْمُون ووِردُكَ عيد

ألا إنَّ وادى النيل منك بعيد
وشوقك لا يَبْلَى وأنت عميد

فمن مبلغ عنِّى التحيَّة مَعْشراً
ودادى فِيهم ثابِتٌ ويزيد (٣)

* * * * *

(٢) اى ذكرناك فاعلم ذكرنا اياك انه كورود منك فان مكسورة الهمزة وان شئت فتحت.
(٣) اشارة الى قول جميل « قالت ثابت ويزيد » .

النيل الطامح

أتذكر حين النيل أحمر طامح
وكم لك عند النيل بينع مرابح

وماذم منى أرض تكرور وافد
إليها ولكن طرحنك المطارح (۱)

أتذكر إذ دار الغريبة رحبة
واذ فضلها جم واذ أنت قارح

واذ حولك الطلاب والفتية الألى
غنيت بهم غاد إليك ورائح

وكم لك عند النيل من ذى مودة
وآخر ذو قربى لقربك فارح

وكم لك عند النيل من ذى تحية
وذى حاجة يرجو وكم لك مادح

وكم لك فى مصر أديب وعالم
وكم لك فى الخرطوم خل وناصح

وقد هبت الريح الشمال فهيجت
فؤادك إن البين للقلب جارح

وأنكرت هذا الهبو لما رأيته
وشاقك بالنيل الشراع المجالح (۲)

---

(۱) ارض تكرور هى ما بين بلاد برنو وسنغال .

(۲) المراد هنا المائل يجاذب الريح وتجاذبه وفيه اسراع وتزيد.

وإخلاصُ بيضاءِ الذراعين جَذْبَها
قُوَى الحَبْلِ اذ جنب الشراعين جانح
وتَبسم لما أوجَس القَلبُ خِيفةً
ووتُغضى وماء النّيل للشُربِ صالح
وقد بلّ لَطْم المَوجِ ثوبى وثوْبَها
وراع وعَصْفُ الريح بالبرد لافح
وأرنو إليها وهىَ تجذِب حَبْلَها
ومسقط لَوْح النّصف بالماء ناضح (١)
وان لقاءاتِ القُلوبِ خفيّةٌ
مداخلها والتجربات مفاتح
لأُم نَرنى باينت أسماء كارها
وذلك رُزءٌ بين أسماء فادح
وقد كتبَتْ تبغى لنا أن نَزُورَها
لَميسُ وقالت إنّها ستبارح
وآثرت تأخيرَ الجوابِ تَقِيّةً
وعندى لها بَعدُ الهوى والنصائح
وقد زعموا أنّى كَنَيتُ بِذكْرها
وهيهات لا أكْنِى ولكن أصارح
وقد وَدعونى لَيلَةَ الدار عُصبَةً
وودّعهم مِنّى مُبين مناصح
ولمّا أتاح الله لى طائر النوى
تَفاءلت علّ الخَيرَ لى فيه تائح (٢)

(١) هذا يكون فى نصف كل قارب ويتم به توازنه ويسميه النوبيون (السقالة) بتشديد القاف وبالانجليزية (سنتر بورد) .
(٢) تائح : اى يتهيا ويتيحه الله من تاح (للآلى).

ولازلت جارَ البَيْنِ من أول الصِّبا
وحسبى دارا طِيبِنىَ المتناوحُ (١)

إذ الجرْفُ ذو غاباتٍ سنطٍ غزيرةٍ
وطَلْحٍ وإذْ ظلُّ السَّيالة فاسح

واذ تجتنى الصَّمغَ الجنىَّ وترتقى
الى القَرْظِ الفَرْعَ القَصِىَّ الكَوادح (٢)

وقد زال عنك الآل والحال والغنى
وطاحت بجيران الزمان الطوائح

وأبصرت فى حَرِّ الهجيرة قاربا
على الضفة الأخرى وماثم نابح (٣)

طريح لقى لاحِسَّ للناس عنده
وقد حفَّه آل النهار الضحاضح (٤)

وقد خلت الدنيا وقد ران صمتها
وخيمت لفقدان الأنيس التماسحُ (٥)

وأذكر لمّا أن صحوت فلم أجد
سوى برْدِ مَسِّ الماء والبحر طامح

وقد طاح فيه النُّؤْىُ وارتاع قلبه
لأن نام حتى حوله الصبح صابح (٦)

كأنك لم ترفعه أمس مثابرا
وللنيل مدٌّ مُشْرَئِبٌ مكاوح (٧)

---

(١) المتناوح : المتقابل ، شرقيه بازاء غربيه
(٢) جمع كادحة والقرظ ثمر السنط .
(٣) وما ثم نابح : وما هناك احد .
(٤) وقد حفه السراب كأنه ماء ضحل متصل بماء النيل .
(٥) لفقدان الناس . التماسح : التماسيح .
(٦) النؤى ما يردم ليكون حاجزا للبيت دون الماء من مطر او نحوه .
(٧) مكاوح : مقمم ممتلىء يهم باجتياز الردم .

وقد عَضَّ بالعالى من الأرض كلّه
بِذى ِحبب إزباده فيه ماصح (١)

وقد ملأ اليَمّ الفجاجَ ولم يَكُن
لِيكبحه دون العزَازةِ كابح (٢)

وقد غرقت فيه الجذوع جميعها
وقد غاب سُنط الخنورِ الآسرائحُ (٣)

وأبصرت فى الماء الفناجينَ عومتا
وبَعضُ أثاث البيت طافٍ وكاسح

وأقبل يُزجى رَيِّسُ البر مَرْكباً
بَحيثُ مكانُ الماء أمسِ أباطح (٤)

وقد حُزِّم البيت القديم فلم يَقَعْ
وكم جاح من بَيتٍ جديد جوائح

تَسَرّبْنَ تحت الأرض حتى قعرْنَهُ
وصاحِبُه بالنّوْى ساحٍ وكاتح (٥)

وقيل أساس الطوب فى البيت صانه
فلم يَهْوِ اذ نَزّ الدّميرة ناضح (٦)

وما هو الا لُطف ربّك إنه
لطيف وعَن ضعف الضعيف مسامح

---

(١) بذى حبب : بماء ذى فقاقيع لفيضان النيل . ماصح : ذاهب ـ فقاقيعه تغيب فى مده المتسع .

(٢) العزازة : الخلاء .

(٣) سرائح بدل من سنط لان غاب فيها معنى النفى . او نقول : لا بمعنى غير والاول اجود .

(٥) مركب بضم الميم هكذا ننطقها وفتح الكاف اى السفينة كانها اسم مفعول من اركب لان الريس يجعل الناس يركبونها .

(٥) ساح اى يسحو الارض بالمسحاة اى الطورية وكاتح يكتح التراب .

(٦) الدميرة : الفيضان .

أتَصبِرُ أم للبين دمعك سافح
وكم لك من مَتن له البَين شارح
والنفَيتُ هذا العَيشَ مافيه لذّةٌ
سوى أن طحا قلبٌ الى الحبِّ طائح
وإن غنى فكر اللبيب مناحةٌ
يَنوح بها إنَّ الحياة مناتح
على ما مضى إذ ليس فى العَيش لذّةٌ
سوى مامضى والباقياتُ الصّوالح
لدى اللهِ هنّ الذخر والذُخر كلّه
إلى المَوتِ إنّ المَوتَ للنّاس ناصح

* * * * *

وفلجاءِ ثغر ذات بشرٍ وصحة
لها كفَلٌ من ثقلهِ الطّرْفُ رازح
نَظَرتُ إليها مرّةً وكأنّها
من الأُدْمِ ريمٌ سِرْبُ واديه سارح
وراقصتها والليلُ نشوانُ والخطا
تَداني وأطراف الثياب تماسح
ألا ليتَ شعرى عن أوربا وثلجِها
وقد لبست منه المروج الأفائح
وقد خامر الكَونَ الربيعُ وَرفرفَتْ به
فى كآباتِ النفوسِ المَفارح
وفَوقَ الشجَيرات الشطوءُ التى بدَتْ
وذابَ من الثلج الذرى والجَوانح (١)

(١) الشطوء جمع شطء وهو اول ما يخرج من النبات .

تَسَمَّعُ إذ تَهْوِى مواقعُ قَطْــرِه
وتُبْصِرُها فى الضَّوْءِ وهــى لوائــح

وقد دبَّ فى الجِسْم الحَرارةُ والهــوى
وحَبَّ إلى النَّفس الصِّبا والتَّصابُــح

وعند الرُّبَى قــد أشــرف الخَمَلُ الذى
عليــه ضِيــاءُ الشَّمْسِ والطيــر صادح

ومدَّتْ اليــك الكأسَ مــن خمر وصلهــا
فَتَــاةٌ لهــا دَنٌّ من الحُبِّ طافــح

ألا إنَّ أيَّام الشــــباب التى مَضَتْ
بكينا عليهــا فالدمــوع سوافــح

ولازال فى القلــب الشَّبــاب الذى مَضَى
كمــا كان والاشواقُ مِنْهُنَّ جامــح

وأبهجَ منــك النَّفس لمــا تبَرَّجَتْ
لدى البركة الغيــد المــلاح الصَّبائــح

سَبَحْنَ على ضَوْءِ النَّهـــار ورُبَّما
صَبَحْنَك بالأهــواءِ إذ أنت سـابــح

تجرَّدْنَ الا مــن شُفوف رقيقـــةٍ
خَصَفْنَ بها والحُورُ هُنَّ الرواجــح

تَذَكَّرت ياخِلِّى الفتــاةَ التــى لهــا
خِصــال المها والخاطِرِ المُتَســامِح

ويَمْلأ منا جانبَ الكَفِّ نَهْدُهــا
اذا نَفَحَتْه وهــو للثوب نافـــح

وقــد زوَّدتنا ســاعــة البَيْن قُبْلَةً
وجــدنا لها دِفئاً كـأن بـاح بائــح

متى نحن شِئتنا عاوَدَ الفمَ طَعمُهـا
على حَذر لايَنفضَحُ العِرْض ماضـح

كأنَّ بـه تفّاحـةً عَبقرِيَّـةً
لها أرجٌ أنفاسها تتفـاوح

وذلك رزقُ الله باليُسر سـاقـه
إلينا ويَومُ الصَّوم أغبرُ كالـح

ذَكَرْت بهـا ذاك الرّبيع الذى مَضَى
بِلَندن هَيهَاتَ الشّبَاب المُبَارح

أجِدُّك تَزْهُوك الصَّبابة بَعْدَمـا
تَوَلى الصبا وانجاب عنك المسائح (١)

أتذْكر لنا ثَجٌّ وَابِل روضـةٍ
وللتوصّل رِفدٌ عِند هَيفاء سانح

وليلتنـا اذ مَجَّ فى فَمِـك النَّدى
نَدَاهـا ومِنهـا طيّبُ العِطر فائح

تُضِيءُ لكَ اللّيـل التفاتَةُ جِيدهـا
كأنّ بريقَ النّحر منهـا مَصابح (٢)

وترنو وبالخدّين تَدْنُو وثغرهـا
يَقُول أليس العيش فيه المفاسح

وقالت ألا إنّ النسـاء غـوادر
وما إنْ إلى العليـا لَهُنّ منادح

كأن وَهَبتكَ العُمر وهى سَخيّةٌ
بـه لاتبالى والنفوس شحائح

---

(١) أى شعر الشباب الكثيف الفاحم .
(٢) مصابح : مصابيح .

وأخلَفتها ميعــــادَ يَوم لقائهـــــا
بملكك والدُّنيــا سنيـح وبـــارح (١)

ولامــكَ فيهــا لائــم وكأنــه
لما نلـت منهـا حاسـد القلـب كاشـح

وصادَفتها مــن بَعْدِ دَهرٍ ولم تَكـن
تَظُنُّ بأن تَلقَاكَ والقلبُ صَــافح

وتَسألُه لـم تَنسَ بَعضَ الذي مضى
ولم يَنسَهُ والدَّهرُ فيــه المتَــارح

ولازال فى الاحشــاءِ من ذِكرِ عَهدِها
هُيام وتَبَرِّحُ مــن الوَجْـدِ قــارح

ألم تـر أنى لا أزال مــع النَّــوى
طَريحاً وقلبــى للشَّكيَّـاتِ طــارح

صَبَرتُ على مَرِّ الليــالى بكـلِّ مـا
يسـوء فآن الآن أنِّــى فَــارح

ولو شاءَ رَبُّ العَرْشِ أهلَكَ بَطشُـه
أعــادىَّ إنَّ القَلبَ يَرْجُو وَطامـح

إلى نَيل غايــاتِ الأمانىِّ إنهـــا
لَعَمرُكَ عِنـــدَ اللهِ واللهُ مَانِــح

عليــه توكّلنا وأخبَتَ سِرُّنــا
إليــه وعنّا لُطفُه الوِزْرَ ضــارح

وصــلَّى على الهــادِى النَّبى إلهُنـا
صَلاةً بهـا تَزْكُو وتَصفُو القــرائح

وسلَّم تسليماً مدى الدَّهرِ سَرْمــداً
كَثيرا وربُّ العَرْشِ منــه النوافــح

(١) بملكك اى وانت قادر متصرف والميم مثلثة وبذلك جميعا قرىء فى سورة طه.

بـه قـد تَوسلْنا وفيـه نجاتنـا
ومن فَيْضهِ فَيْضُ المُحِبِّين مائـح
وقلت سأنوى الحجَّ برًّا بوالـدى
ووالدتى والحجُّ فيـه المصـالح
وقلتُ سأنوى الحجَّ من عـام قابلٍ
لوالدتى واللهُ إن شـاءَ سـامح
ومن بَعدِهـا أنوى أحُجُّ لوالـدى
فهـل أنـت ياخلّى إلى الحج رائـح
إن الله يَرجعنى مُعافىً مُوفقـاً
فلله عِندى والرسـول ذبائـح
نـذورٌ بهـا ثوفى إلى الله علّهـا
تُذادُ بهـا عنا النوى والنواطـح
وقـد تَفتّح الفتحَ الجليـل الذى بـه
تَنال غـداً عَفوَ الالـهِ الفواتـح

* * * * *

وأطربنى مـن جانِب النيـل نَخلةٌ
وما ضُمّنتْ فى القفرِ تلـك الضرائـح
وكم لك فى جُنحٍ مـن الليـل عَبْرةٌ
تَرقرقها مـن راحٍ روحـك راشـح
وكـم لك من ذِكرى غـرامٍ وحنـةٍ
تَحِنُّ بهـا إذ أنت هيمـان سائـح
أتذكرُ مـن ذات الدلالِ انشراحهـا
اليك بُودّ القلب حـين تصافِح

واعراضَهــا اذ أعرضــت عنـك يافتى
وإقبالهـا حَسْنـاءَ والجيـد واضــح
وإن لهــا فى الحــاجِبَيْن لصَوْلَةً
وحُكْماً وفى العينــين باللّهْوِ مــازح
وتَبْسِم من ظَلْمِ الثّنايـا بمُزْنَـةٍ
سلافِيَةٍ دلّـتْ عليهــا الملامــح
ولذلكَ شِعْرٌ مــن أبى الطيـب الذى
ســما فارس منــه على الدهــر رامــح
وروّى ولم يَرْحَمْ من الناس رُمحَــه
وراح ومنــه الطائــر الفَرْدُ صــائح
وقــد زعمــت ليلى بأنّــك مثــله
زَمــان الصّبا ريّانُ والبُسْرُ بالح (١)
وذكرُكَ الخَوْدَ الرَّجيحة ليمُّهـــا
إليكَ وكادَتْ بالغــرام تصــارح
وتَرْشيحَها ذاكَ الرُّضــاب الذى هَفَتْ
لوامعُ منــه كالسَّــرابِ لوائــح
إذا مــاهــى احلَوْلَتْ تبلّج وجهُهــا
وإتساقها فِى النّمَيْن بالودّ لامــح
وإن هى لم تَحلَوْل غامــت بوجههــا
كما هَاجَ بالبَحْرِ الرّيــاح اللواقح
وتَحْسِبها بِلقيسَ والصَّرحُ لُجَّــةٌ
ومن دونها زُهْرُ النجــوم الســوابح

---

(١) البسر : البــلح .

شـديدةُ أسـر النفس لكنَّ قلبهـــا
برقٌ ومنــه القســوريُّ المماصـح (١)
وما كفرتـــك الأنعمــم الثرة التى
حَبَوْت ولكنَّ الليـــالى فــوادح
وذكرُكَ الحســناء أيــَّامُ ودّهــا
وكــان لها عَهْدٌ مــن الودِّ صــالح
ألا انهـــا والله لازال فى الحَـــشى
هَواهـــا وان المــرءَ ماعَاشَ كَادح
وإن لهــا لَوْنـاً كريمــا ومنظــراً
وسيماً ومنها القلـب ماشــاءَ مــادح
وكم لك مــن سرٍ كتمــت ولوعــةٍ
كَظَمْتَ وطولُ الصــبر للمرءِ فاضح
ودرّةِ شعرٍ قــد نظــمت يتيمــةٍ
لها ألقٌ فى زَنْدٍ فكــرك قــادح
وأهتِفُ بالعَشْرِ الطّوال ويوســفٍ
أريد خشــاةَ الله والّليــل جانــح (٢)
وصلّيْت خَمْسى أســأل اللهَ خاشــعاً
وعندى صلاحُ النّفسِ والدّهر طالـح
وإنّ لديك البِرَّ للأهلِ والرّضــا
عن الناس والعَفْوُ الصحيحُ المصــالح
وخَوْفُ الالــه البرُّ أجْمَعُ فاعتمــدْ
عليــه وعند الله تلْقَى المناجـــح

(١) القسورى المماصح : الشجاع القاتل .
(٢) هى من البقــرة الى هــود .

تَذَكّرت جيرانى وأهلى ومعشرى
وروضاتِ جنّاتى وحَيثُ أكافح

وسبّوحُ قدّوس وقد هينمت بها
من القوم من بَعدِ العشاء التراوح (١)

ولازلت مشبوب الشباةِ مجاهدا
يُنَاطِحنى كَيدُ العدا وأناطح

وقد علم التُرْبُ الذى فَوقه الحصى
بِقربِ الضريح الفَرْدِ أنّى ناجح

وأنّى اذا ما شمّر القَومُ لم يَزَلْ
لدى الجدّ منى شَمّرِىٌّ مُشايح

ومازال منّى للخطوب وريبها
بَنبلِ سهامِ الله للقَومْ ناضح

ومازال عندى للقريض معاوِدٌ
بريدَ سرّى الوجدانِ للشوق شاطح

وحَيّتك تدنو بالحرارة إنها
تَجيش بها جَيشَ القدورِ المطامح

وقد عرَفَ الشّيخ الجليل جمالها
وأنّ لها عَينَى غَزالٍ فسامحوا

وقد صَرّف الآيات ربّك للورى
وقد دارستناها الغوانى الصرائح

وفى الشّيخ من عهد الجدودِ صَبابَةٌ
وكانوا وَهمْ أهل الكمال الجحاجح

---

(١) اى التراويح . تحلف تنوين سبوح او تجر قدوس على الاضافة الى سبوح من الدعاء سبوح قدوس رب الملائكة والروح .

وكانت لهم كأس الوصال روية
وبعد المدى والسؤدد المتراوح

تذكرت عبد الله شيخي ولايزل
عليه سحاب من رضا الله دالح

ويذكرني سمت الشبيبي سمته
عليه التقى والبر في الوجه ساجح

وقد كان يرعاني وكان يحبني
ومن سره في سر روحي مسابح

وكم قد غرفنا غرفة العلم عنده
ولازال منا غارف العلم ماتح

وإذ أمدح المدح الطوال الذي له
يقام وكانت من هواى المدائح

وصوت ابن عبد العال فيه حماسة
ونشوة ذي بشر وفيه تفاصح

وان ذكر المهدي أبرق طرفه
وكاد به يلتقي الكتيبة ناطح

وقد كان آبائي رجالا أعزة
فعنهم وقد دار الزمان أناصح

وأبصر من خلف الزجاج الذي لنا
وجوه الفلانيات والنيل نازح

وقد برزت أكتافهن وقد بدا
مع الشدة اللين الذي هو جانح

---

(١) اى يثرن الغبار ، من قوله تعالى : والعاديات ضبحا .

يُغَرْبِلن بالأيدى ويُسْرِ عن فى الخطا
ويَعْدُون أحياناً وهُنَّ ضوابح ( )

وكدَّت أشم النيل لما تنفَّست
الىَّ بأنفاس الشَّمال الروائح

وجَلْجَلَ طَبْلُ القوم فى وَضَحِ الضحى
وخَفَّ إليه الذاكرون الوحاوح

بَحَيٍّ وبالقيوم والله دائم
وقالوا أبو « القيمان » بَحْرُكَ طامح (١)

وقد نَظم الكردىّ قَبْل قصيدة
وقد جاء فيها « التراهات الصَّحاصح » (٢)

وذكَّرنى الكردىّ أيامَ دارِكُم
لَدَيْها النَّدى والوَزْن بالقسط راجح

واذ يَرْهب الأقوام جانب شَيْخنا ال
كبير وقمرىّ الأراكات نائح

وعندِ القرى جاءت صَوانٍ كبيرة
تَنُوء كما ناء السحاب الدوالح

حباها تِلادُ الطيبين وزانها
مكارِمُ آدابٍ هناك صحائح (٣)

واذا لوحك الهجليجُ بالجير مشرق الـ
ـعمار وماء البير للجير ماسح

---

(١) قال المادح : ابو القيمان بحر طامح واسمه الجيلى ابا صالح .
(٢) اشارة الى قول الكردى رحمه الله يصف شعر احدهم فى كلمة له طويلة « وما هو الا الترهات الصحاصح » او « ولكنهن الترهات الصحاصح » ما ادرى ايهما فلينظر .
(٣) صحائح صفة لمكارم .

وإذ يكتب القوم المحاية إتهما
شفاء" وخفت للصلاة الجوارح

ودارسني رُبنع الطويلات أبنجرَ
عليه صَفَاءُ النفس والسَّمتُ صالح

وصَوت ابن نور الدين رَقَّ وكم لنا
تَطيبُ إلى خَيْرِ الأنام المدائح

به تكشف الجلى ونعلو على العدا
وتستتَر بالستر الجميل الفضائح

بجاهِ النبى المصطفى إننى له
مُحِبٌ ومشتاق وبالمدح صادح

عليك صلاة الله ثم سلامه
ألا يارسول الله انى طامح

وأنت لنا يَوم الحساب وَقبله
اذا ما سألناك الشفاعة لامح

عليك صلاة الله ثم سلامه
صلاةٌ بها ننجو ويَرْبح رابح

على السَيّد الهادى الذى نور هَدْيه
على الكَوْن فى لَيْل الضلالات لائح

به قد توسلنا نريد به الغنى
غِنى أنْ لنا فى الطيبات منادح

وما كان من يرجو به الله سائلا
يخيب ولو كادت تطيح الطوائح (1)

* * * * *

(1) اى ولو كادت تلعب به الحوادث التى تطيح بالناس . ولك فى تطيح ضم التاء وفتحها (ثلاثى ورباعى) والله اعلم .

قرية وبندر

قال الشاعر توفيق صالح جبريل (1)

أيا دامرَ المجذوبِ لا أنت قرية
بداوتها تبدو ولا أنت بندر

وأجاز صاحب الديوان ٠٠٠٠

بلى أنا حقًا فوق ذلك كلّه
ودوني خرطوم وبارا وبَربر

ويا دامرَ المجذوب أنت مليحة
تذكّرتها يابُعْدَ ما أتذكر

وفيك بنو المجذوب أبناءُ بَيْرقٍ
وابناءُ عبد الله والفضل يُذْكَر

وفيك جليسُ المصطفى كان دَمْعه
من الشّوقِ لمَّا شامه يَتَحَدّر

وفيك عميدُ القوم لما أراده
بَنُوه على تَرْكِ ابْنِهِ وهو أكبر

تذكّرْت ياخلّي ليالي مبَيتنا
بِمَسْجِدها والقومُ بَاكٍ وذَكر

وكان ابَنُ نُور الدّين نَشْوانَ صَيّتاً
وكان زَميلي في الدّراسة أبْجَر

واذْ داركم فيها السّماحة والنّدى
ووالدُك الحَبْرُ المَديحَ يُحبِّر

(١) رحمه الله رحمة واسعة .

وإذ أنا فيكم مثلكم وحفظتمو
ذمام أبي إني لذلك أشكر
أتذكر شرحاً قد نقلناه مرةً
وللقرشي بالعروض تبصر
فدونك أبياتاً إليك بعثتها
وهيجني صوتٌ رخيم معبر

* * * * *

لقد هلهل الشعر امرؤ القيس إذ بكى
ومن دونه خوص الركاب وأوجر
ولما بدا حوران والآل دونه
نظرت فشاق العين ياصاح منظر
(عليك صلاة الله ثم سلامه
ألا يارسول الله إني) أشعر
(صببت دموعاً يشهد الحزن أنها
أتت من فؤاد بالهوى يتفطر
(فؤادي بحب المصطفى متنور
ولي فيه أغراض إليه سأذكر)
وطارت بنا طيارة ذات خفة
وقد كاد منها الباب لايتنكر
وشاقتك ليلى حينما قد تبرقعت
وكاد محياها من النور يسفر
تقطع منها النور لما تلطفت
ولاح الجبين واطمأن المخصر (١)

(١) اشارة الى قول الشيخ رضى الله عنه :
ومفضة برق أم ضياء جبينها تقطع منه النور اذ تتلطف

والقَتْ على الكُرْسِيِّ للنَّوْمِ رأسَها
إلى أن بدا جَيْبُ القميص المُقَوَّرُ
وخالط شَفَّافَ السَّوادِ بياضُها
كأن على الخدِّ النَّدى يَتَقطَّرُ
ترى حدقاً يغفو وأنفاً وجانباً
من الثَّمِ يبدو وهو شَيْحانُ أزْور (١)
(كأنَّ على لَبَّاتها جَمْرَ مُصْطَلٍ)
وفي قَدَمَيها جَمْرُ تِبْرٍ يُجَمَّر
ومدّت بساقٍ عَبْلَةٍ وكأنها
بذلك لاتُعْنَى ولا تَتَسَتَّر
ألا إننا عند الصبابة والهوى
لأجل مَديحِ المُصطفى نَتَبَخْتَرُ
ونَمْشي به نَلْقَى الكُماةَ بِحَدِّه
كما قد مَشَى للحَرْبِ لَيْثٌ غَضَنفر
كَمَشْيِ سِماكٍ يَومَ أحُدٍ مُباهِياً
بِسَيْفِ رَسُولِ الله والنَّاسُ تَنْظُر (٢)
وشدَّ لِكَيْ يلقى العَدُوَّ برأسِه
عِصابَةَ مَوْتٍ والصحابة حُضَّر
أولئك أنصارُ النبيِّ الألى بِهِمْ
أُقيمَ عَمُودُ الدِّين والحَرْبُ تُسْعَر
بنو قَيْلَةٍ أهلُ البَسالةِ في الوغى
لهم يَومُ بدرٍ والقليبِ وخَيْبَر (٣)

---

(١) شيحان : مشيح منصرف .
(٢) هو سيدنا ابودجانه سماك بن خرشه رضى الله عنه .
(٣) القليب كان ببدر ولك رفعها .. اى بهم نصر النبى صلى الله عليه وسلم.

ويَوم حُنَيْن حين أحجموا وَضيمه
ومن قبل قد كادت هوازن تظهر

وأشرف خير الناس ينظر فعالهم
ويحمده لما تداعوا وأشعروا (1)

حببنا رسول الله من أول الصبا
الى الآن نرجو فى هواه نعمر

عرفنا به الله العلى وإننا
الى الله نعنو والقلوب تطهر

ولما صدحنا بالدعاء تهزمت
إلينا دياجير الظلام تقهقر

نصلى بأصوات خفضن تأدبا
إليه جميعا خاشعين ونجأر

نصلى على الهادى الشفيع نبينا ال
بديع والآلاف السلام تكرر

الى أن رأينا سوحه حينما بدت
تلوح وأنوار المدينة تنور

سمونا له لما دنونا صبابة
وشام سناه العارفون فكبروا

وأنظر من شباك غرفة فندقى
الى القبة الخضراء والله أشكر

وأرقب الوقت الذى فيه يأذن ال
جناب إلينا الهاشمى المعطر

(1) قالوا : ياللخزرج هذا كان شعارهم رضى الله عنهم .

وإن له نـــورا الى العرشِ ســاطعـــاً
تشــاهده العينــانِ والقلبُ ينظـــر (١)

وحاشى إلـــه العـــالمـــين بَرَدنـــا
ونحن لــه فى حبّـــه نتفكـــر (٢)

* * * * *

ألا ليت شـعرى هــل أبيتنّ ليلـــةً
أمامى بأرضِ الــروم كوبٌ ودِفتر

فانّ بــلاد الروم فيهـــا محاســـنٌ
وان بهـــا العيشَ الرخيـــم ليُخبَـــر

وأنـــا لنبغى فى الحيـــاةِ مكاســـبا
وما مَكسَبٌ الا القتـــالُ المشمر

وإنّـــا لنلقى الحادثـــات بأنفسٍ
اذا مسّهـــا لذعُ المصيبات تصبـــر

* * * * *

وقـــد جـــاءنى أن الرجـــال تخيّروا
الى الأمـــر محجوباً وقـــد يتخيّر

وكلُّ أناسٍ عصبَةٌ ومعَســـــكرٌ
ونحن لعمـــرى عصبَـــةٌ ومعســـكر

ولاشك محجـــوبٌ أديـــبٌ مهذّبٌ
وكـــان لـــه فى سابـــق الدهر مفخـــر

ومن قبل رُزنـــا كـــل ذى خنزوانةٍ
إذا ما أرينـــاه المـــروءةَ يضجـــر

(١) اشارة الى قول الشيخ رضى الله عنه فى لقد طال شوقى .
(٢) اله مثلثة الهـــاء اعـــرابا .

ألم تر للدُّنيا شَجَتنا شَجنوها
وإن التزام الصَّبرِ أجدى وأجدر
وصَوْمُك عن ذِكرى أمورٍ كثيرة
كصومك يَومَ الشكِّ لاشكَّ تؤجر

* * * * *

جفتنا لعمرى أمُّ عمروٍ وربما
إلى وصلنا الحسناءُ قد تَتَعَطَّر
وما أمُّ عمروٍ غير جيداء دارها
بحيث يَفيضُ البَحرُ والماء أكدر
وقد أطربتنا بِنتُ قَومٍ طويلةٌ
على الصَّدْرِ منها برتقال مكَوَّر
وفى الشَّفةِ العَذراء منها انهدالةٌ
وفى المَشْى لما أن مَشَت تتحدَّر
تَغيمُ بعينيها وتصحو وإننا
لنَرْنو إليها وهْىَ لاتتأثَّر
كأنَّا إذا نرنو إليها نَغوص فى
بِحارٍ بألوان الفراشات تَزْخر
وقد جَلَستْ يوماً إلينا ولانرى
ونَحنُ نصوغ الشعر والشِّعرُ يأسر
فلما رفعنا طرْفنَا وإذا بها
عجبنا لعمرى شَدَّ ما قد نفكِّر
وقد جزعت يَوْماً لالمام حادثٍ
ألمَّ ولم تَشعُر به وهى تقدِر

وقد رشّحت دمعاً لها فعرفته
وكدتُ عليها رقة أتفطر
أخذت بكفيها وقلت لها اقعدى
فمنك بكاء الطّفل لا يُتَصَوَّر
وقد عرفت عطفا عليها وطأطأت
ورام ابتساما ثغرُها وهو يَفغَر
الى أن حملناها الى دار أهلها
وما أحد من سائر الناس يشعر
أردنا لها سترا وما زال دأبنا
قديماً على جاراتنا تتستّر
وآت بفستان أنيقٍ ومنظرٍ
رشيقٍ وزنّار عليها مزكر
وتضحك كالطّفل الغرير وإنها
لكالطّفل إلا أنها هى أوثر
وقد كان من أمّ البنية قبلها
إلينا بعينيها أسىً وتفكّر
وكان ينوء الطّرف منها بضاحكٍ
على حسراتٍ غوْرها ليس يُسبَر
وقد قبّلتنا ساعةَ البَين قبلة
بلا ظمأٍ تخشى العيون وتحذر
وتسلو وهل يَسلو فؤادك بعدما
سُطِرنَ به من قصّة الحبّ أسطر
وهيهات هيهاتَ الزّمانُ الذى نأى
وعيشك هذا دأبه يتغيّر

* * * * *

وجاءَتْ إلينا بالكتاب وطيَّه ال
سقودُ رَدَاحُ المقلتين سبَيْطر

أتت بكتاب من رئيس محاسب
دقيق على أعبائه متسيطر (١)

ترى تَعَبَ التفكير فى نظراته
ولأياً اذا رام الحديث يُعَبِّر

ويَكشر مُضنىً بابتسام وقلبه
على ثقة بالأمر ساعة يكشر

وقد علمت أن بشَّرتنا بوجهها
وإن تك جاءت بالعطاء تبشر

وقلنا لها أهلا وسهلاً ومرحبا
فإنك نعم الزائر المتزوَّر

وهل لك فى برد الشراب فإنه
يُجاء به للضيف ساعة يحضر

فقالت ألا كلا ومدَّت بدفتر
لإمضائنا يَغشَى الصَّحيفة خِنصَر

وان قلوب الغانيات رَقيقة
وإن عزيز الصَّيد إن ريع يَنفِر

وهمت بكلا لحظةً ثم راجعت
حجاها ومن قبلُ ازدهاها التكبُّر

وقالت نعم ثم اطمأنت بمجلس
يُطِلُّ علينا وجهها المتحضر

(١) اى هو متسيطر ولك ان تقول متسيطر وما البتنا اجود وفى النحو يجوز النصب والرفع والجر جميعا ههنا والله اعلم .

اذا ما أرتنا الثغرَ منها تألقت
عوارضه حتى فؤادك يُحنبَر
وقد نَمرتنا غُرّة فى جَبينها
وشَعْر لها حرُ الضُقيرات أشقر
وقد فرقته من مُقَدّم رأسها
الى حَيْث منه شُعبتان المؤخر
يرى منهما يافوخها وقذالها
بحسنهما حُسّانة الجيد تفخر
عظيمة أكتاف طويلة قامة
كأن نخلة منها إلى الباب تخطر
وماشف للعينين شيئاً قميصها الذ
ذى هو دون الركبتين مقصر
سوى ظُلَلٍ من خلفها قد رأيتها
يطول الأسى من ذكرها والتحسر
وإن لنا فى شاطىء النيل منزلاً
رفيعاً وفينا للطواغيت خنجر
وفينا وداد من يروم ودادنا
فماء وليمون وثلج وسكر

* * * * *

ألا قد سبانى البابلى المعصفر
ورنم عليه الخال ريّان أحضر
ألا ان قلبى باسم متفائل
وشعرى كشعر الاولين مُحَبّر

ولا أحسب الاسلام إلا تحية
سلاماً سلاماً والقلوب تطهر
وإسلامَ نفس المرء لله كلها
وحرّية التفكير حين تفكر
وحبك بيتَ الله والدينَ كله
وحب النبى والحبون زوّر
وقد كان فينا أهل مصر جماعة
وحبهمو للمصطفى ليس ينكر
وقد رافقت عماً أو أباً لها
فتاة به ترجو لدى الله تؤجر
كسيحاً يجر الركبتين وكفه
يسير بها يبغى الرضا لايفتر
تسير بإبريق الصلاة أمامه
ويرنو الى الله العلى ويشكر
ومن طلب الدين الحنيفَ ولم يقل
بحب رسول الله لاشك يكفر
فلا تسمعَن للجاهلين مقالة
ألا إن امر الجاهلين متبّر
ألا ياخليلىّ اللذَين تواصيا
ألا فاعلما أنى لبيب مفكر
وأنى مذ رُزت الأمور وجدتها
تشابه منها جوهرىّ وجوهر
وقد زرت بيت الله وازددت أننى
بطيبة فى أنوار أغمر

وأنى فيهـــا قـــد وجـــدتُ سكينـــةً
حبـــانى إياهـــا الجنـــانُ المطهـــر

فلا تحســـبنّ الأمـــر هيّناً فإنـــه
يهـــون بصـــدق النيـــة المتعســـر

وليس سبيل الدين ياصـــاح مظهـــرا
اذا غرّ طـــلاب الديانـــات مظهـــر

ولكنـــه سرٌ خفـــى وشقّـــة
مـــن السيـــر لايقوى عليهـــا المُسيّـــر

وقـــد قيـــل فى التوحيـــد قدمـــا وخطّه
شيـــوخ كثيـــر مالكىّ وأشعـــر

وان عطـــاء الله منحـــة مانـــح
وهوبٍ وليســـت باكتســـاب تقـــدّر

ولازالـــت اسرارُ المهيمـــن أمرهـــا
بغيـــر ســـنا الايمـــان لايتصوّر

وانـــا جميعـــا ناظـــرون لوجهـــه
غـــداً إننـــا حقـــاً اليـــه سنحشر

وضلّ أخـــو شـــرك يراهـــا نهايـــة
وأنّ امـــرأ يفـــنى عشيّة يقبـــر

ولا أحـــدٌ يخلـــو مـــن الشرك إنـــه
خفىٌ لـــذا يغلـــو النفاق ويكثـــر

* * * * *

(ومـــن عرف الايـــام معرفتـــى بهـــا)
كذلـــك قـــال العبقـــرىُّ المشهّـــر

أسِيتُ لــه فى مصــر اذ هــو يَائس
وفى الشــام كادت ذمــة منـــه تخنفـر

ولمــا أتـى أرض العـــراق تنمـــرت
(أفى كل يــوم تحــت ضِبنني شُوَيعر)

ولما اســتوى دَسْتَ الخلــود تَســوَّروا
الى أن هـــوى منـــه صريـع معفّـــر

وقــد نمتـــــه طــه وأحسِب أنــــه
تحامــل شيئاً وهـــو بالأمــر أبصــر

وقــد بلـــغ الشـــيخ العلائىُ رتبـــــة
من الفَضْل الا أن أحمـــد أشـــعر

وكـــان الوزيــر المغربىُ صديقـــــه
وكانت له مــن جيــد الشــعر أبحُــر

وانــت بعيــد الشــوق مشتبه الهـــوى
من الوَجْد لاتكبـــو ولاتتعثـــرّ

وان الذى يصـــبو كمــا قــد صبوت لا
لايزال أخــا دمعٍ مــن الشوق يقطـــر

* * * * *

ونائبـــةٍ فى البرلمـــان جديـــــدةٍ
جلاها لنـــا مــن جانب الخدر منبـــر

نهنئهــا بالفــوز إنـــا يَسُرُّنـــا
مــن الوَطَنِ المستقبـــل المتحـــرر

ألا قــل لمحجــوب تحيــة شاعـــر
وأنت قديمــاً شــاعر" ومفكـــر

أردنــاك للجلّــى فكــن من حماتها
ولازلت للجلى حُسَيْدانُ تذخــر

وعش يا أبـا سـامى مليـّـاً ولاتَـزَلْ
أمــيراً عـلى ود القلـوب تؤمّــر

وقــد سرّنــى أن الخليــل مُحَمَّداً
تخيّر إذ للأمــر ورد ومصــدر

عرفت لــه الودّ القديــم ولــم يــزل
على عهــده والحــر لايتغــير

وكنــا زمــان الدرس نَقصــد داره
ومنــزلــه رَحْبٌ لنــا وميســر

* * * * *

بنــو وطنــى قلبــى بهــم مُتعلق
إذا جــنّ ليــلى والخليُّون سـمَّر

تذكــرت أهلــى الصــالحين ودامــرى
ومَرْقَد آبــائى الذيــن تخـيّروا

تذكرتهم والبيــدُ بينــى وبينهــم
وصنبحاً وظُهْرا والعَشــيّة نمْطر

ولاحَتْ بُروق فى السماء مُخِيفَــةٌ
لهــا شُعَبٌ زُرْقٌ الضــياءِ وأنهــر

ومنهنّ ذو أغصــان شَوْكٍ كأنـــه
بــه شَرَرٌ مــن ملّــة الجمــر يُنْتَثر

يروع كمــا عــين الكمينةِ روّعــت
بجاحمها لمّــا إلى الطّــوب يُنْظرُ (١)

---

(١) الكمينة هى التنور الذى يصنع فيه الآجر .

تذكـــرت ترداى أخـــى بـــين منـــزل
وحَيْث لنـــا جَرْف" بسَوْبَـــة أغبـــر

* * * * *

ألا إنّ توفيـــق بـــن جبريـــل هاجنـــى
إلى الشعر منـــه بَيْتٌ شـــعر محبّـــر
وتَوْفيـــق عنـــدى شـــاعر ذُو أصـــالةٍ
مُجِيد" شـــديـــد الوَجْدِ عنـــه يعبِّـــر
وذكرنى أيـــام دامـــر قَبْلَهـــــا
زَمان" لنـــا فى جانـــب القاش أغْضَـــر
زمـــان الصـــبا غضّ وأهلـــك كلهـــم
حُضُور وإذ ريـــب الحـــوادث مُقْصِرُ
وإنـــك قـــد اصبحـــت ياصـــاح مفردا
وما أحـــد" مـــن بينهـــم لـــك ينصـــر
وقد عَلِمـــوا أن لو دَعَوْكَ أجَبْتهـــم
ولكنَّهـــم خَافُوا وخَامُوا وأدبـــروا
عسى صـــاحبى يَحْنـــو علينـــا زماننا
كما قـــد حنت فى ســـالف الدهـــر أعصر
تذكـــرت ياخلتى ليـــالى مَبِيتنـــا
بتَاكَة إذ كنـــا بتاكـــة نَسْمُـــر
وإذ عـــين تُوتيـــلٍ رواء" وأهلنـــا
هنـــاك ســـواء" غائبـــون وحُضَّر
وزرنـــاكمو فى بيتكـــم ذات مَـــرَّةٍ
وكان هـــوى قلبـــى قطـــار مزمجـــر

نسير معا تف تف تنف تف تنف تنف

وأنت نبطشي وأنت ستقطر

وزرناكمو ليلاً بخرطوم مرة

وكان مع الخبز الحليب المسكر

وأمك عادتني وقد كان برها

علىَّ كما مدَّ الدميرة يزخر

وقد قيل عَينن أوشكت أن تصيبني

غداة رأيت الشيخ صوتي يجهر

أتذكر هذا إن هذا جميعه

مضى وهو في قلبي لعمري يُذخر

وإني كريم أريحي مُرزأ

بشكر الذى أهواه قد أتفجر

ألم ترني لما نأيت تعطفت

إلى وطني مني ضمائر غوّر

وراجعت أيام الطفولة إنها

بَعيد ولكن عهدها هو أنضر

وليس كحب الوالدين وإنما

زمان الشباب خِفة وتعثر

وتعطو إلى الحب البعيد نفوسنا

تريد وراء الغيب ما الغيب يستتر

نريد الخلود المستحيل وقد نرى

مصارعنا يدنون إذ نحن نكبر

وإن لنا عند النساء مودة

نريد بهن الأم هيهات نظفر

(ألا ليت شعرى هل أبيتنَّ ليلةً)
بحيثُ الحَصَى يُحصَى وحولى مَعْشَرُ (١)

اذا ما أفاض الناس والله فَوْقهم
مُنيفٌ بعينٍ يعملون وينظر

أقول لخِلّى هل تذكرت قومنا
عَشِيَّةَ اذ هم بالسَّفينة سَيَّروا

وقالوا توكلنا وثَنَّوا بِرِدْفٍ
وصلوا بمشتاقين والله كبروا (٢)

وقد جلسوا فى بلِّغٍ جلسة الرِّضا
ومن بعدها حَرُّ المديح تخيروا (٣)

(فؤادى بِحُبِّ المصطفى مُتَنَوِّرُ
ولى فيه آراب اليه سأذكر)

(وحاشَى جناب الهاشمىِّ يردنا)
ونَحنُ به نَرْجُو النَّجاة وننظر

(عليك صلاة الله ثم سلامه
ألا يارسول الله إنى) أشعر

بنورك فى هذى الدجنة نهتدى
ونهواك حقا والصلاة نكرر

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما
ولله الحمد أولا وأخيرا وبه التوفيق .

---

(١) أى بمزدلفة .
(٢) اشارة الى مدالح الشيخ رضى الله عنه: عليه توكلنا وبردفه السلام وصلينا لمشتاقين
(٣) اشارة الى مولد الشيخ رضى الله عنه بلغ اللهم روحه الشريفة... الخ.